ألغاز بوليسية

أرسين لوبين

غريم أرسين لوبين

مكتبة معروف

غريم أرسين لوبين

محمد عبد المنعم جلال

مكتبة معروف

الإسكندرية: ٤٨١٠٨٧٨ / ٤٨٤٦١٢٦ فاكس ٤٨٦٠٠٨٩

القاهرة: ٣٦١١٢٢٩، ص ب ١٢٧٠ الإسكندرية

١ في المحكمة

مازال الناس ، في فرنسا وفي غيرها من البلاد يذكرون الأنفعال الكبير الذي أثارته قصة الإبرة المجوفة وكنز ملوك فرنسا .. قصر الإبرة الذي حوله أرسين لوبين إلى قلعة منيعة .. ورغم التعليمات المشددة التي أصدرتها الجهات العليا فقد كان من المستحيل منع تسرب جزء من الحقيقة بحيث أصبحت قلعة فريفوسيه لمدة أسابيع طويلة مزاراً للفضولين اللذين كانت فرقة الشرطة المكلفة بحراسة القصر تجد مشقة كبيرة في تفريقهم ، ولم يمنع ذلك من انتشار الشائعات والأقاويل ، فقد قيل إن بعض لوحات المتاحف القومية زائفة ، وأن اللوحات الأصلية موجودة داخل جدران الإبرة والتقطت صور فوتوغرافية للعبارة التي كتبها لوبين بالطباشير الأحمر على حائط القاعة العليا وهذا نصها :

" يوصي أرسين لوبين لفرنسا بكل كنوز الأبرة المجوفة على أن تنقل إلى متحف اللوفر وتعلق في قاعات يطلق عليها قاعات أرسين لوبين "

وانقسم الشعب على الفور ، فقد زعم البعض أن الجمهورية يشرفها قبول هدية اللص الشهير النفيسة في حين أبدى البعض الآخر سخطه لمجرد فكرة تقبل الحكومة بفخر وشرف ثمرة كل تلك الأسلاب .

ولكن لم يلبث أن تصدر كل تلك المزاعم والأقاويل سؤال هام .. لماذا

تخلى لوبين عن كل ثرواته ؟ .. هل أعتزل مهنته العجيبة ؟ .. أو هل تراه على العكس من ذلك ، اكتشف مكاناً آخر أكثر أماناً وأشد مناعة وضم فيه كل ثمين ونفيس من التحف واللوحات الأخرى ؟ .. وتحدث البعض عن كنز متحف تامبلييه وسرداب مونسيجور ، وكثرت التخيلات والأوهام وخطر لأحد الصحفيين أن يأخذ حديثاً من بوتريليه ، ولكن هذا الأخير اختفى .. ومن ناحية أخرى ، وبصدفة عجيبة كان جانيمار فى أجازة .. وقدم أحد نواب المعارضة استجواباً للحكومة رد عليه رئيس الوزراء بطريقة مبهمة .. كلا .. لم تتفاوض الحكومة مع أرسين لوين ، فقد انكشف سر " الإبرة " بعد تحقيق طويل ، أما لوبين فقد أفلح فى الفرار مرة أخرى ولا يدرى أحد ماذا جرى له .

ولكن ، مامن إشارة واحدة إلى المأساة التى وقعت بجوار المزرعة النورماندية الصغيرة ، ولم يعرف أحد شيئاً عن الكارثة التى أودت بحياة رايموند دى سان فيران .. ولم يكن فى مقدورى فى ذلك الوقت إلقاء الضوء بتصريح من صديقى الشهير ، على المأساة التى قلبت حياته ، بل إننى كنت أجهل أين أختفى المسكين .. كان قد مر بى ذات ليلة وقد بدله الحزن وهده وقال لى :

-" إننى راحل ، وأرجو أن لا يهتم بى أحد بعد اليوم "

وروى لى فى بضع كلمات ، وصوته يتهدج من الانفعال ، كيف هرب فى الليل وكيف دفن سراً ، تلك التى أحبها كل الحب ، واختتم حديثه قائلاً :

- إنتهى كل شئ ، ولن أموت لأننى لا أستطيع أن أموت ، ولكن أظن إننى لن أبرأ أبداً .. وداعاً .

وضمنى بين ذراعيه ثم خرج .. ولم أره بعد ذلك قط .. وظل الناس

يتكلمون عن "الإبرة" ولكن لم تلبث الأحداث أن جرت بوقائع جديدة في الصفحات الأولى من الجرائد .. أنباء عن عصابة جديدة خطيرة تترك في أماكن جرائمها بطاقة ممهورة بتوقيع غريب وهو " المخلب ".. وهي عصابة بدأ الناس يتحدثون عنها في اهتمام وانفعال كبيرين .. ثم أن المسائل السياسية اتخذت مجرى يدعو إلى القلق ، فإن المناقشة بين الدول أثارت الخوف من وقوع حرب عالمية ، ولم تعد الجرائد تذكر عن " الإبرة الجوفة " إلا النذر اليسير .. وراح الخبراء وأمناء المتاحف وأساتذة الآثار والتاريخ يذهبون بالتناوب إلى قصر الإبرة لإعداد كشوف وقوائم بالأشياء التي أوصى لوبين بها للحكومة وتقدير قيمتها والتحقق من أصالتها .

وكان يقوم بالحراسة شرطيان عند مدخل السرداب وشرطيان آخران عند الكنوز ، ولم تكن قد نقلت بعد إلى باريس .. وكانت حراسة غير كافية تسببت في إثارة القضية من جديد ، فقد أقبل ثلاثة رجال ذات مساء إلى قلعة فريفوسية ، وتكلم أحد رجال الشرطة فيما بعد فقال :

– كان يبدو أنهم من المواطنين الشرفاء ، وقدموا لنا أوراقاً قانونية على أنهم موفدون من وزارة الفنون الجميلة بتوكيل رسمي وقالوا انهم انتظروا حتى هبوط الليل للتخلص من فضول المارة لأن الفضوليين كانوا لا ينقطعون من شروق الشمس إلى غروبها .. ولم يرق الشك إلى الشرطيين فتركوهم يدخلون ، وعلى الفور هجم الرجال الثلاثة عليهما وكمموهما وقيدوهما .. ولقي الشرطيان الآخران اللذان بداخل الإبرة نفس المصير .. وقام الرجال الثلاثة بنقل جميع اللوحات والتحف على الفور وتمت عملية النقل على عدة مراحل فقد أقبلت بعض السيارات وتوقفت أمام باب القلعة وسمع الشرطة صوت المحركات وهي تدور .. وتم كل شئ بجرأة وشجاعة

كان من الممكن أن ينسبها الجميع اللص الشريف لو لم يكتشف أولو الأمر تحت عبارة أرسين لوبين المشهورة " يوصى ارسين لوبين " عبارة أخرى مكتوبة بالطباشير الأحمر هى أيضاً هذا نصها .

" يعتذر المخلب للجمهورية ويقدم خالص شكره لأرسين لوبين

وتفجر الغضب فى جميع أنحاء البلاد .. " هذا تحد سافر للبوليس

" لم نعد نشعر بأى أمان " " سرقة الميراث القومى ".. تلك كانت عناوين أكثر الجرائد انتشاراً .. وبلغ السخط مداه عندما نشر محرر جريدة الجولوا مقالاً قال فيه :

" إن لوبين قد وجد أخيراً نداً له قد لا يوقفه ذكاؤه عند الحد الفاصل لضمير الإنسان وشرفه ، كما قدم أرسين لوبين الدليل على ذلك أكثر من مرة .

" المخلب " .. كانت الكلمة تبدو كما لو كانت تهديداً ووعيداً كانت تدل على القسوة والعنف الذكى الذى لا يرحم .. وكانت تشير ، فوق كل ذلك إلى عصابة أو منظمة مدبرة تخضع لأوامر زعيم بعيد النظير يملك وسائل قوية وعظيمة لمباشرة عملياته ، والدليل على ذلك تلك السيارات التى انتظرت أمام باب القلعة .. وكان للوبين أعوان كثيرون مخلصون له كل الإخلاص ولكنه لم يملك أبداً وسيلة فعالة لهجوم جماعى كذلك الذى حدث .. وقد ثبت من التحقيقات الأولى أن سبعة رجال على الأقل يعلمون مع " المخلب " .. الثلاثة المكلفون بنقل المسروقات ، والسائقون الأربعة لأن الآثار التى وجدت عى الأرض الهشة أمام القلعة كانت تدل بكل وضوح على أن أربع سيارات توقفت هناك .. ثم أن من المفروض أن زعيم عصابة " المخلب " .. كان موجوداً هو الآخر لإدارة العملية ، فكيف لا يندهش أمام الطابع العسكرى

لهذه المغامرة الجريئة .. كان في ذلك مايثير الرعب والذعر .

وقام البوليس بحملة كبيرة على الفور وأقام الحواجزوالسدود وراقب المحطات والحدود ولكن دون نتيجة .. وبقى أمل واحد لم يجرؤ أحد بعد على النطق به ، وهو أن لوبين لا يسعه إلا أن يقبل تحدى " المخلب " وأنه لا يتأخر عن التصدى العدو .. وراح الجمهور يترقب يوماً بعد يوم إحدى تلك الرسائل المفتوحة المليئة بالحماس والوقاحة المرحة التى تعلن عن هجوم لوبين .. وعندما كتب أحد محررى جريدة " الأيكو دى فرانس " مقالاً بعنوان " ماذا ينتظر ؟ .. خيم على البلد صمت عميق .. وانتظر الجميع رد لوبين السريع المذهل الحاسم .

ولكنى كنت أعرف للأسف أن الرد لن يأتى ، والواقع أن لوبين لزم الصمت التام .. أين اختفى ؟ .. لعله هاجر إلى بلد آخر ، أو لعله يختبئ كحيوان جريح فى أحد القصور البعيدة .. وكانت خيبة الأمل كبيرة ولم تلبث أن تحولت إلى غضب شديد وكثرت الأقاويل والأشاعات وراح الجميع يرثون للوبين ثم لم تلبث أن ظهرت أسماء عجيبة غطت عليه بليريو ولاتام .. وأخذ الناس يتساءلون إذا لم يكن الطيران سلاح المستقبل .. ومع ذلك فلم ينس أحد " المخلب " .. ولم يلبث أن وقع حادث أعقبته مأساه أعادتا الاهتمام بالعصابة الخطيرة ، فقد اتصل مسيو ديبوا ، تاجر التحف والعاديات بشارع سان بيير بالبواب وأبلغه أن رجلين مجهولين عرضا عليه أن يبيعاه بعض التجف وقدما له كشفاً عنها عرفها التاجر على الفور ، وكان بينها صور لتماثيل صينية معروفة وكانت ضمن مجموعة لوبين .. وكانت الجرائد قد نشرت وصفاً دقيقاً لها .. وفى الحال قام كبير المفتشين جانيمار بإعداد كمين .. وكان اللصان قد تواعدا مع مسيو ديبوا لإنهاء العملية فى

نفس الليلة فأقبلا فى الموعد المضروب ، وكان رجال البوليس مختبئين خلف بعض الستائر فاستقبلوهما على الفور ، وبدلاً من أن يستسلم الشقيان أطلقاً النار وأصابا جانيمار بجرح طفيف فى ذراعه الأيمن .. وتغلب رجال البوليس عليهما بكل مشقة واقتادوهما إلى إدارة الأمن .

ولكن فى صباح اليوم التالى عثر على تاجر العاديات قتيلاً فى محله وقد ثبتت فى صدره بطاقة عليها هذه الكلمات :

" المخلب لا يحب الثرثارين "

وهكذا ، لم تكد تمضى بضعة أسابيع على سرقة كنوز الإبرة حتى لم يتردد " المخلب " فى أن يضرب للمرة الثانية ، وفى ضراوة أثارت الرأى العام .. وراح كل امرئ يدلى برأيه ، فمن قائل أن " المخلب " ينتمى إلى النظام الفوضوى وأن مقتل تاجر العاديات عمل إرهابى ، ومن قائل أنه ينتمى إلى منظمة إجرامية من نوع جديد .. جمعية سرية أشبه بجمعية اليد السوداء المشهورة التى أشاعت الفوضى والفساد فى صقلية فى وقت من الأوقات .

عهد بالتحقيق إلى القاضى فورمرلى ، وهو مشهور بدقته وحصانته .. وقد واجه المتهمين برجال الشرطة الذين وقع عليهم الاعتداء فى قصر الابرة ولم يتردد هؤلاء وأكدوا للقاضى أنهما كانا من بين المعتدين .. ولكن القاضى لم يستطع الحصول على أى اعتراف منهما رغم كل ما بذل من محاولات .. وبالتحقيق من شخصيتهما اتضح أن أكبرهما سناً وأشدهما غلظة وقسوة يدعى أدولف شومينار وأنه سبق أن حكم عليه بالسجن مدداً متفاوتة بتهمة السرقة أما الأخر فيدعى جوزيف برجون ، وحكم عليه بالسجن سنة بتهمة أخفاء أشياء مسروقة .. رجلان ثانويان كما تدل

الظواهر ، هاربان من العصابة لأنه لا يمكن الاعتقاد بأن زعيم المخلب من الغباء بحيث يعهد إليهما بعرض بعض المسروقات الثمينة للبيع . كانا قصيرى النظر ، بهرتهما الكنوز المسروقة من الابرة ولم يتمكنا من مقاومة الأغراء فأخفيا بعض المسروقات النفيسة التى خيل لهما أنه من السهل تصريفها .. وكانا ينويان الهرب بعد بيعها بطبيعة الحال فراراً من انتقام الرجل الذى خانا ثقته ، لأن هذا الأخير كان رجلاً شديد القسوة لا يعرف معنى الرحمة ، والدليل على ذلك مقتل تاجر العاديات .

ولم يطل التحقيق ، فقد كانت الحقائق تتكلم عن نفسها ، فمن ناحية اشترك اللصان فى سرقة الابرة ، ومن ناحية أخرى أطلقا النار على رجال البوليس وأصابا كبير المفتشين ، وهما يتعرضان الآن لقضاء سنوات طويلة فى السجن إن لم يكن السجن المؤبد

وعندما بدأت المحاكمة تجمع جمهور غفير حول قصر العدالة ، وأقيم نظام خاص لإقصاء الفضوليين .. وكان من العسير جداً دخول قاعة المحكمة أما الذين كان يسمح لهم بالدخول فكانوا يتعرضون لتفتيش دقيق لأن أولى الأمر كانوا يخشون أن تبدى عصابة المخلب شيئاً من العنف وكان القاضى مالتير رجلاً شجاعاً وقديراً وكان الجميع يعلمون أن المحاكمة ستدور بكل دقة .. وكان النائب العام فنسان سارازا ، أصغر نائب فى فرنسا وأشدهم صرامة وقسوة ، وكان المعروف أنه سيطالب بأقصى العقوبة .. وتولى الدفاع عن المتهمين محاميان من أقدر المحامين واكفأهم .. وأحس الجميع بأن المشادة ستكون حامية .. لم يكن للمتهمين الجالسين فى قفص الاتهام أية أهمية ، فمن خلالهما سيحاول فنسان سارازا الوصول إلى المخلب .. كان لابد من أن يبعث الاطمئنان إلى قلوب

المواطنين وأن يوهن عزيمة زعيم العصابة الخطير بحكم قاسى وكان اليوم الأول فى مصلحة المتهمين ، فقد لجأ المحاميان إلى طبيب مشهور فى الأمراض العقلية يدعى الدكتور فيفنسكى ، وقد أثار تقريره اهتماماً كبيراً ، وكان تقريراً وجيزاً له فعالية كبيرة أكد فيه أن شوفينار لا يتمتع إلا بقدر ضئيل من الذكاء وانه لايمكن أن يكون مسئولا عن أعماله .. أما برجون فهو رجل سريع التأثير ضعيف الإرادة انقاد لإغراء شوفينار ، وهكذا تفوق الدفاع فى اليوم الأول

* * *

– ما رأيك ؟

أجفلت .. ورأيت رجلاً يجلس بكل هدوء ، فى الناحية الأخرى من مكتبى ويضع على ركبتيه قبعة مستديرة ومنتفخة ويحمل وساماً فوق صدره كان يبدو ويشاربه الرفيع ولحيته الرمادية كأنه ضابط يرتدى ثياباً مدنية وابتسم فى رفق ، وانحنى نحوى وقال كما لوكان يطلعنى على سر :

– إننى دخلت من الباب ، إذا كان هذا هو مايزعجك ، وإن كنت مازلت أستطيع أستخدام " الطفاشة "

– أنت ؟ ..

أجابنى لوبين :

– نعم أنا ياصديقى وشيئاً فشيئاً ، عرفت من خلال تنكره ، وجه الأيام السابقة وومضة العينين وخبث الابتسامة ، ولكن كان فيها فى هذه المرة شيئاً من الكدر والاستسلام ضاق له قلبى .. وأمسك يدى من فوق المكتب المزدحم بالأوراق وقال :

- ولكن لاتزعج نفسك ياصديقى فإننى لن أمكث طويلاً .

- ولكن ماذا تفعل ؟

- ماذا أفعل ؟ .. الحق أننى لا أدرى .. إننى أعيش ، وهذا كل ماهناك أنا كشجرة الصبار فى جوف الصحراء .

وأطبق عينيه .. ورأيت الغضون فى ركن عينيه .. أثر المرارة التى بدأت تظهر بين الأنف والصدغ .. وتمتم :

- حسناً .. دعنا لا نتكلم عن الماضى على وجه الخصوص .

ورفع بطرف أصبعة الأوراق المتناثرة فوق مكتبى وعاد يقول :

هذه القضية تثير اهتمامي أكثر فأكثر .. ليس بسبب الضرر المعنوى الذى وقعت ضحية له فحسب ، وإنما بسبب ذلك الذى يختفى تحت أسم المخلب .

هل تعرفه ؟

- أبداً .. ولكنه يفزعنى .. ويستهوينى .. فيما سبق .

واستطرد يقول وهو يبتسم فى حزن :

- فيما سبق .. فى حياة سابقة درست قضايا عديدة ظلت مستغلقة .. وأنا الآن مقتنع بها كلها تمت إلى عصابة واحدة .. عصابة المخلب .. مثال ذلك ، قضية قصر ملليرى وهى قضية لا ريب أنك لا تزال تذكرها .. تدل على جرأة عجيبة وإقدام مذهل وسرعة مدهشة .. يشوبها قسوة فظيعة لا موجب لها .. لم يكن هناك أى مبرر لقتل الوكيل .. ولا لقتل المحصل .. وأستطيع أن أذكر لك قضايا أخرى دون التحدث عن تاجر العاديات المسكين .. إن هؤلاء القوم يضربون كما لو كانت قد صدرت لهم الأوامر

بذلك .. كما لو أنهم يمتثلون لتعليمات محددة ، فلماذا ؟

ومس شاربه فى حركة حالمة ثم أنحنى نحوى .. ورأيت فجأة فى عينيه تلك الومضة العجيبة التى تظهر عندما يحاول استجلاء معضلة ما .

– لماذا ؟ .. سأقول لك ذلك .. إن هذا الرجل بحاجة إلى زمرة ملتحمة تتحد معه لتحقيق أغراض كبيرة لا علم لى بها .. وخير رباط فى الجريمة هو التضامن ، وإذا كان بينهم جبان أو رعديد فإنه يسارع باستبعاده كهذين المجرمين الغبيين اللذين تدور محاكمتهما الآن .. واعتقد أن المخلب استطاع التخلص من بعض العناصر الخطرة .. ولك أن تتصور كل ما يمكنه أن يفعل .. وتحت يديه فرقة مدربة تدريباً آلياً على الطريقة البروسية وتطيعه طاعة عمياء .

وراح يمر بيده ، فى تفكير ، على حافة المكتب .. لم أشأ أن أتدخل ، وراقبته فى انفعال .. ومع ذلك فقد كان هناك سؤال يلح على .. ماالذى دفعه إلى اختيار هذا التنكر ؟ .. وخمن مايدور فى ذهنى فقال :

– أنت تتساءل لماذا هذا التنكر بالذات ؟ .. هذا الزى المحترم يتناسب تماماً مع رجل يدخل قاعة المحكمة ومعه بطاقة دعوة .. من ذا الذى يرتاب فى رجل عسكرى مسن يتواجد ظاهرياً فى صف القانون والنظام ؟ .. اعترف أن هذه القضية تثير اهتمامى ، وأود لو أن ترى هذين المتهمين أنهما لا يكادان يردان على الأسئلة إلا بنعم أو لا .. وينظران يميناً ويساراً فى ذعر وفزع .. صدقنى ، أن النائب العام لا يفزعهما وإنما الآخر .. الآخر ، ولعله موجود فى قاعة المحكمة .

– مستحيل .

– بل أننى أكاد أكون واثقاً من ذلك ، وإننى أرثى لهذين الوغدين لا ريب أنهما يندمان الآن لوقوعهما تحت إغراء الربح .

– لو استطعت أن تتعرف على ذلك الذى تدعوه الآخر فماذا تفعل ؟

ضم لوبين قبضتيه فى عنف ثم اعتدل فى مقعده وهز كتفيه وقال :

– ولكننى لا أملك أية وسيلة لكى أتعرف عليه .. قد يكون أى شخص .. بل هو أى شخص بالتأكيد .. مثلى .

وضحك ضحكة قصيرة أعادت إلى ذاكرتى لوبين الذى عرفته ، فى حين عاد هو يقول :

– إنه لأمر مضحك عندما أفكر فيه .. هو وأنا ضائعين وسط الجمهور ، فى المحكمة ، نلعب الاستغماية .. أيكون هو ذلك الرجل الآخر الذى يجفف جبينه ؟ .. أحس فى بعض الأحيان بنظرة خلفى وأغالب نفسى لا ألتفت .. وأنا واثق أنه ، من ناحيته ، يحس بنفس الاحساس .. وهذا أمر مثير لأول وهلة .. ولكن مع أمعان الروية والتفكير لا أشعر بأية رغبة فى النضال .. أن الحكومة لم تعرف كيف تدافع عن الكنوز التى منحتها إياها فتبا لها وعليها هى أن تتصرف مع المخلب .

قلت :

حذار ياصديقي ، فأنت بالنسبة لزعيم العصابة لا تزال الخصم الذى يجب إزالته ، ولك أن تسلم معى بأن كل الأسباب تدعوه إلى أن يخشاك ، فالمعروف عنك أنك لا تصفح عن الإهانات بسهولة .. وإذن .. لو أننى مكانك لا تخذت الحيطة والحذر .

– باه ! .. وماالذى يمكننى أن أخسره الآن ؟

- لا أحب أن أسمعك تتكلم هكذا .. أنت مازلت شاباً ومازالت الحياة تدخر لك مفاجآت كثيرة ، ولا تقل لى أن فى نيتك أن تعيش الآن من دخلك ، فلن أصدقك .. ستأتى المغامرة وتبحث عنك .

- عليها أن تسرع إذن لأن فى نيتى أن أرحل بعد المعركة .. أن بيير لوتى جعلنى أتلهف على زيارة اليابان .

ونهض وردد البصر حوله فى بطء ثم قال :

- لم يتغير شئ .. كل شئ هادئ وأود لو أن أكون مكانك .. إننى أتذكر .

وأمسك عن الكلام ، وأتى بحركة من يده كما لو لكى يبعد ذبابة ثم استطرد :

- كلا .. إننى لا أتذكر شيئاً .. إن لويس فالميراس مات هو الآخر وأنا الآن راوول دى ليمنرى .. هذا الإسم أو غيره ، لم يعد لهذا .. أية أهمية أليس كذلك ؟ .. سآتى لمقابلتك قبل رحيلى .

وشيعته حتى الباب .. وهناك استدار وألقى إلى بتحية قصيرة وهو منفرج الأسارير ثم اختفى فى الظلام .

* * *

وما أن فتحت الأبواب فى صباح اليوم التالى حتى أخذ لوبين مكانه فى قاعة المحكمة .. كان اليوم يوم مرافعة النيابة والأفاع والنطق بالحكم .. وكان الجمهور منفعلاً وصاخباً ، وهدد القاضى بإخلاء القاعة إذا لم يستتب النظام ويعود الصمت .. وأعطيت الكلمة للنائب العام .. وأدرك الجميع على الفور إن فنسان سارازا يريد الإيقاع بزعيم عصابة المخلب من خلال

المتهمين التافهين اللذين يجلسان محدوبي الظهر في قفص الأتهام فوسمهما بالضلال والفساد ورما هما بكل الموبقات .

واستطرد يقول :

– ثم جاء الرجل الذي اغواهما واعدا إياهما بالثراء إذا استسلما له قلباً وروحاً ، وأصبحا آلتين من آلات الجريمة .. ولكن الآلة تحتفظ دائماً ببصمة ذلك الذي يستخدمها .. فقلم بلزاك يثير الذعر والفزع أكثر مما يثيرهما سكين عادى ، فإن خبث الجاني ترك فيه نوعاً من الدهاء يجعل منه أداة للشر .. وكذلك الحال مع هذين الرجلين فهما مذنبان ذنباً مزدوجاً .. الأول لأنهما نفذا بكل خسة إرادة الرجل الذي يستخدمها والثاني لأنهما استخدما العنف بمطلق حريتها .. هي إذن يد المخلب وساعده .. هي المخلب نفسه .

كان الصمت الذي تلا قوله هذا مؤثراً .. ولم يعد أحد يسمع غير سعلة خفيفة هنا وهناك .. ومد النائب العام اصبعه نحو المتهمين وأخذ يكيل الحجج التي راحت تتساقط فوق رأسيهما .. لقد قتل المخلب تاجر العاديات ولكن بما أن شومينار وبرجون هما المخلب فهي مسئولان أيضاً عن هذه الجريمة .

المخلب .. كانت الكلمة تتكرر كثيراً بطريقة مشئومة .. وبدأ كل امرئ يفهم أن الرجلين هالكان لا محالة .. ولم يستغرب أحد عندما طالب النائب العام بإعدامها .

وعبثاً حاول المحاميان استدرار شفقة المحلفين ، وعبثاً حاولا ، إستناداً إلى تقرير الدكتور فيفنسكي ، التدليل على أن المتهمين تصرفا دون أن يدركا خطورة ما أقدما عليه .. وكان هناك إحساس بأن الجمهور لا يكن نحوهما أية شفقة وعندما أشار محامي شومينار أن زعيم عصابة المخلب

يشبه في بعض النواحي أرسين لوبين هاج الجمهور وماج وارتفعت صيحات الاحتجاج ولوح الجميع بقبضاتهم .. وكاد الرجل الجالس بجوار لوبين أن يختنق وهتف يقول ،هو يقف على قدميه :

– ياللعار ! .. يحيا أرسين لوبين !

أسرع رجلان من رجال الشرطة نحوه وأجبراه على مغادرة القاعة ، في حين أعاد القاضي الهدوء شيئاً فشيئاً .. وانتهت المرافعات وغادر المحلفون القاعة للمداولة بينما تفرق الحاضرون في الرواق .

وقضى لوبين فترة وهو يتمشى جيئة وذهاباً في الرواق تدور في ذهنه أفكار حزينة ، فإن المظاهرة التي وقعت في صالحه بتلك التلقائية التي يستدل منها على أن شعب باريس لا يزال يحبه ايقظت فيه ندما .. ويكتت ضميره .. فهل يحق له أن ينفرد بألمه ويترك المخلب يزدهر على حسابه ؟ لقد كان جديراً ، في أوقات أخرى بأن يقبل التحدي بكل سرور وأن يرغم المخلب على رد المسروقات ، ولكنه ، وجها لوجه مع نفسه كان لابد له من مواجهة الحقيقة .. لم تكن له أية رغبة في أن يعود فيكون أرسين لوبين ؛ فهو لم يعد يؤمن بنجمه ، بل أكثر من ذلك ، كان خائفاً .. أحس بأنه لم يعد يملك مواهبه وقدراته العجيبة ، سواء طبيعياً أو ذهنياً .. تلك المواهب والقدرات التي طالما سمحت له بأن يقلب أشد المواقف لصالحه .. وإذا جاء المخلب وهاجمه ، وهذا أمر يراه غير محتمل تقريباً فإنه سيجد صعوبة كبيرة في تفادي الضربة .. كان كالناقه الذي لايزال معلقاً بين الحياة والموت والذي لا يتمنى غير شئ واحد وهو أن يتركه الجميع في هدوء لقد أخطأ بحضوره هذه المحاكمة التي أثارت فيه كل هذه الذكريات .. أخطأ بالتفكير وبإثارة الجروح القديمة التي مازالت تتعرض للنزف من جديد

كان يجب أن يختفى فى مكان ما .. كان يجب أن يطلق رصاصة على رأسه

عاد الجمهور إلى قاعة المحكمة تواقاً إلى سماع الحكم .. وقال لوبين يحدث نفسه "

- " الأمر سيان : .

وبقى وحده فترة طويلة متكئاً على أحد الأعمدة وتناهى إلى أذنيه صوت هتاف وتصفيق بعيدين .. وفجأة إندفع الناس من خلال الباب .. واستوقف امرأة مضطرمة الوجه وعارية الرأس وسألها :

- حسناً ؟

مرت المرأة بيدها على رقبتها كما لو كانت سكيناً وقالت :

- هما الإثنان .. أنهما استحقا هذا المصير .

***

٢ المخلب ينتقم

تناول راوول دى ليمنزى عشاءه فى مطعم قريب من المحطة .. وكان اكولا بطبعه فراح يمضغ على مهل وهو يفكر رغماً عنه فى زعيم العصابة .. المخلب الغامض .. وطبقاً لطريقة نجح بها دائماً مع جانيمار وشرلوك هولز حاول أن يضع نفسه مكانه .. ولكنه فعل ذلك للحظات صغيرة لسوء الحظ ، لكى يتغلب على الضيق الذى يطبق عليه .. لم يكن هناك شك فى أن الرجل يدفعه الطموح ولكن ماهو الهدف الذى يسعى إليه .. الهدم والتخريب ؟ كان هذا قليل الاحتمال فإن المجرمين يعيشون عادة فى وحدة وعزلة فى حين أن العبارة التى خطها المخلب على الجدار كان لها معناها :

– يعتذر المخلب للجمهورية ويقدم خالص شكره لأرسين لوبين .. كان الإسلوب سافراً ومستفزاً .. أسلوب لوبين بالذات .. ثم أن الطريقة المتحدية التى تمت بها السرقة رغم وجود رجال الشرطة كانت تدل على أن زعيم عصابة المخلب أراد أن يقول .. أن لوبين الحقيقى هو أنا .. وأنا لست من الغباء بحيث أمنح الجمهورية هدية لها مثل هذه الأهمية .. ولكن ، إذا كان الأمر كذلك فلماذا هذا العنف وهذه الجرائم ؟ .. لعله أراد أن يقول بعمله هذا أن الرجل الذى يريد أن يكون أرسين لوبين حقاً لاحق له فى أن يمارس

هذه اللعبة بطريقتين :

طريقة الفعالية وطريقة النزاهة .. طريقة مخالفة القانون .. وطريقة المتشكك.

وفكر لوبين :

لا ريب أنه خطر له إننى اكتفيت وأريد الأعتزال أو ممارسة عمل آخر .. نعم ، هو هذا .. وقد عقد العزم على أن يأخذ مكانى ولكن دون أن يبدى أى اهتمام بالمشاعر والأحساسيس النبيلة وبالشرف كيف لم أفطن إلى ذلك قبل اليوم ؟ .. أن هذا واضح وضوح الشمس .. وماعليك ياعزيزى لوبين إلا أن تختفى ، فأنت لم تعد غير رجل ضعيف خواف .. تنح عن الطريق وأترك المكان للبطل العصرى الذى يتقدم والقنبلة فى يده وليكرهه الجميع شريطة أن يخافوه .. جرسون ، الحساب .

اشعل راوول دى ليمنرى سيجارة .. أحس بأنه أصبح يرى الأمر بوضوح أكثر الآن .. وخطر له وهو يتناول قبعته وعصاه من عاملة حجرة الثياب أنه يروق له الالتقاء بهذا الغريم الخطر .. ونظر إلى السماء التى تنتثر بها النجوم وقرر أن يعود على قدميه إلى مسكنه ، وهو بيت خاص بشارع الفريددى فينى ، متاخم لمنتزة مونسو ، وكان يقيم فيه منذ بضعة شهور .. ساعة من المشى سوف تريح أعصابه .

واجتاز نهر السين وهو يتابع أفكاره :

كانت رغباتى فيما سبق أوامر .. كان يكفينى أن أتمنى هذا اللقاء فيقع على الفور شئ يقودنى إليه تدريجياً ، وأنت ياراوول لم تعرف ذلك الوقت ، أو لعلك تعرفه شيئاً ما .. كنت ساحراً ، وكانت الأحداث تنحنى لرغباتى ..

لا تنس أننى أنا الذى ابتدعت الأبرة ، ثم مرت فتاة .. كنت عبقرياً من أجلها وقد اختفت عبقريتى معها .. ولكن إلى الفراش الآن ياراوول .. إن الساعة تقترب من العاشرة ، وقد قمت بحماقات كثيرة الليلة .

* * *

وهم بأن ينعطف إلى شارع موريللو عندما ارتطم بشخص يجرى بكل قواه .. وكانت الصدمة عنيفة جعلتهما يقعان على الأرض معاً .. وكان لوبين أول من وقف فأمسك بالرجل وعاونه على الوقوف على قدميه وهو يقول :

– ما هذا ياصاحبى ؟ ... لا أدرى ما الذى يمنعنى من ...

ولكنه ، على ضوء المصباح الغازى الذى يضئ المكان رأى شاباً فتياً يتلوى لفرط الألم فقال :

– هل أنت مصاب ؟

لم يرد الشاب ، وإنما راح يصغى إلى صوت أقدام تجرى وتقترب بسرعة وقال :

– دعنى .

ودفع لوبين عنه فجأة وأستأنف جريه وهو يعرج .. وفى نفس اللحظة ظهر شرطيان .. وترددا لحظة ، ورأيا الهارب ينعطف إلى شارع روسيدال ومنه إلى منتزه مونسو فاسرعا خلفه .. وقال لوبين :

– ياللمسكين .. لاحظ له على الإطلاق .

وكان الشاب المصاب قد توغل فى المنتزه ووقع عند جزع شجرة ضخمة ولكنه لم يلبث أن نهض واختفى خلف دغل .. ووقف الشرطيان يتشاوران لعل الرجل مسلح .. وراح لوبين يدلك كتفه الذى آلمه من الوقعة وهو يفكر

بكل سرعة .. لاريب أنه لص .. ولكنه فتى فى مقتبل العمر يفتقر إلى الخبرة وأنه لأمر مؤسف أن يلقى الشرطيان القبض عليه .. سوف يقسوان عليه .. ولكن لا .. من يكون هذا .

وسرعان ماعادت إليه بديهته التى اشتهر بها فتسلل فى خفة إلى المنتزه بدوره بينما كان الشرطيان يتقدمان فى بطء .. وكان المنتزه ظليلاً بحيث تبدو والممرات والمروج للعيان .. كانت الأماكن المشجرة غارقة فى ظلام كثيف .. وكان لوبين يعرف كل شبر فى المنتزه لأنه كان يتجول فيه كثيراً فمضى فى سكون إلى منحنى أوصله بقرب المكان الذى رأى الشاب يختفى فيه كان الرجل هناك ، يستند إلى جذع شجرة ، ويلهث متعباً ، فريسة سهلة لأعدائه .

– أعطنى قبعتك ياسبستيان ولا تتكلم .

وألقى لوبين عصا ودس قبعته المستديرة فى يدى الشاب ووضع فوق رأسه قبعته ، وكانت عبارة عن قبعة رخوة بواقية أمامية " كاسكيت "وقال :

– لا تتحرك بأى حال من الأحوال ، وانتظرنى حتى أعود .

وكان الشرطيان على مقربة .. ورأيا فجأة رجلاً يجتاز طرقة وهو يعرج فاندفعا نحوه وهما واثقان أنهما وقعا على بغيتهما .. ولكن هذا الأخير كان يفلب منهما بمعجزة كلما اقتربا منه .. وارتد بهذه الطريقة إلى الحدائق التى تحيط من ناحية المنتزه بالمنازل الخاصة وانعطف لوبين بضع مرات بحيث سبق الشرطيين بمسافة كافية وأخرج سلسلة مفاتيحه وفتح باب الحديقة الخاصة التى تمتد أمام بيته وتسلل إلى البيت وصعد إلى الدور العلوى وتخلص من الكاسكيت فألقاه خلف مقعد وخلع جاكتته ولبس جلباباً

وفعل كل ذلك بسرعة غريبة لأنه كان يشك فيما سوف يحدث .. والواقع أن جرس الباب صلصل فتخلل شعره بأصابعه لكى يبدو أنه صحان النوم ووارب النافذة وقال :

– من الطارق ؟

حياه الشرطيان ، وكانا يقفان بجوار الباب الحديدى وقال أكبرهما رتبة

– لقد تسلل رجل إلى بيتك ، وقد رأيناه فى الحديقة .

قال لوبين :

– سأهبط حالاً .

وراح يصفر فى مرح .. وفتح الباب ودعا الشرطيين لتفتيش الحديقة واقترح عليها تفتيش الحدائق المجاورة ، وبلغ فى مجاملته لها أن شيعهما حتى الباب الحديدى قائلاً :

– بلى ، بلى .. أرجوكما .. هذا أقل مايجب .. إنكما ترهقا نفسيكما لحماية الناس الشرفاء ، ولكن المجرم هرب لسوء الحظ .

وقال الشرطى الآخر :

– ومع ذلك فقد كان فى متناول أيدينا .

– هل أنتما واثقان إنكما رأيتماه هنا ؟.

– كل الثقة .. كان يضع على رأسه .. " كاسكيت " وكان يعرج .. من المستحيل أن نكون أخطانا .

– إننى آسف .. هل يمكننى أن أقدم لكما مرطباً ؟ لابد إنكما متعبان .

ترددا .. وقال أكبرهما :

– كلا .. يجب أن نعود حالاً .. لاريب أنهم بحاجة إلينا

– آه . ماذا حدث ؟

– شئ قد يكون خطيراً كنا نقوم بداوريتنا .. والحي هادئ فى العادة وقد لاحظنا فى شارع كورسيل ، عند التقائه بشارع مونسو سيارتين واقفتين ، إحداهما خلف الأخرى .. ووقع عندئذ شئ غريب وبسرعة مذهلة ، فإن سائق السيارة الثانية صرخ يطلب النجدة فأسرعنا إليه .. ولكن السيارة الأولى لم تلبث أن انطلقت فى ضراوة تاركة على الأفريز الرجل ذا الكاسكيت ، وكان يحاول أن يصعد إليها ولكنه عدل عن ذلك فجأة وسارع بالهرب .. وصاح سائق السيارة الثانية يقول لنا :

– إنهم اختطفوا سيدتى .

قال لوبين :

– ولكن ، ألم يكن من الأحرى مطاردة السيارة التى انطلقت .. أن لديكما سيارة وكذلك سائق .

– ماكنا لنلحق بها أبداً ، فهى سيارة كبيرة من طراز مرسيدس ، وكانت قد ابتعدت فى حين أنه كانت لدينا الفرصة للقبض على ذلك الذى سارع بالفرار .. آه .. لقد اخفقنا ولا أدرى حتى الآن كيف استطاع أن يفلت منا .

– وطبعاً لافكرة عندكما عن تلك السيدة التى اختطفت .

قال الشرطى الثانى :

– معذرة .. يخيل لنا أننا عرفنا سيارة السيد فنسان سارازا .

أجفل لوبين وقال :

- ماذا ؟ .. النائب العام ؟

- نعم .. فهو يقيم فى شارع كورسيل ، فى المكان الذى وقع فيه الحادث وقد رأينا سيارته واقفة أمام البيت كثيراً .

- ولكن إذا كان الأمر كذلك فأسرعا إذن .. لا ريب إنهم بحاجة إليكما هناك .. سأذهب غداً لاستقاء الأنباء .. إننى أعرف السيد سارازا فقد رأيت صورته فى الجرائد مراراً .. لم يعد أحد فى أمان فى هذه البلاد .

ونظر إلى الشرطيين وهما يختفيان فى المنتزه وهز رأسه .. حسناً .. إننى قمت بعمل جميل ! .. اختطاف ؟ .. دى ! .. إذا كانت مدام سارازا امرأة جميلة ، ولا ريب أنها جميلة حقاً ، فمن الطبيعى أن تختطف .. وفى سيارة مرسيدس بالذات .. إننى أتصور زوجها يتميز الآن من الغيظ .. ولكن هذا صحيح .. سارازا .

وأوشك لوبين أن يضرب جبينه بيده .. طبعاً .. إن النائب العام هو الهدف ، فهو الذى أصدر الحكم بإعدام شوميناز وبرجون .. اتضحت القضية فى يوم جديد مشئوم .. وأسرع فتخلص من جلبابه وأخذ مسدسه وهو يقول :

- الويل لك الآن ياسبستيان .. وعاد إلى المنتزة .. لم يكن المصاب فى المكان الذى تركه فيه .. وفتش لوبين المكان وهو يأمل أن يجد قبعته على الأقل ، ولكن عبثا .. لم يجد غير عصاه .. وتذكر أنه حتفظ بكاسكيت الشقى ولعله بفضل هذه الكاسكيت يستطيع أن يهتدى إليه .. وعاد أدراجه وهو فى شدة القلق .. لم يكن يؤمن بالمصادفات ، وازداد اقتناعه بأن هناك صلة بين القضية التى أدين فيها المجرمين وبين اختطاف زوجة النائب العام .. هذا إذا كانت زوجته هى التى اختطفت حقاً .. ولكن غريزته قالت له إن

الشرطين غير مخطئين ، وهاهو القدر يلقى بين يديه دليل إثبات قد يكون له أهميته .

ومضى رأساً إلى الدولاب وأخذ الكاسكيت وقلبها .. وجد على البطانة الداخلية حرفين منقوشين س .ج .. وعلى بطاقة من القماش عبارة بالحروف المذهبة :

ليون ، صانع قبعات .. ممر جوفرى بباريس .

كان هذا جميلاً جداً .. هاهى ذى الفرصة تسنح له ليعاود عمله .. وفحص لوبين الكاسكيت .. كانت رمادية اللون من نوع ثمين من القماش .. ومضى إلى غرفة نومه ووقف أمام الموقد ، أمام صورة فوتوغرافية لرايموند دى سان فيران ، وتأملها ملياً .. هل يجب ؟ .. أم لا ؟ .. كلا يارايموند .. لن أذهب إلى صانع القبعات ، فإننى أعرف نفسى ، فإن حدثاً سوف يجر آخر .. ولن أستطيع أن أتوقف .. وسوف تتلقفنى الحياة من جديد .. حياة المغامرات التى تخليت عنها من أجلك .. س . ج .. كسيمون أو لعله سبستيان .. من يدرى ؟ .. لعلى وقعت على الأثر الصحيح ، فى حين أننى كنت أمزح .. هذا هو الحال معى دائماً .. معذرة يارايموند .. لو تعرفين ماهى الوحدة .. كل تلك الأيام التى تتشابه والتى تمضى على وتيرة واحدة يجب أن أتظاهر طبعاً بالاهتمام بشئ ما .. حسناً .. ها أنت ترين .. أننى ألقى بها فى هذا الدرج .. لن ألمسها ، خاصة وإن س .ج لا يعنى شيئاً .. مساء الخير يارايموند .

* * *

فى أصيل اليوم التالى مضى راوول دى ليمزى إلى ممر جوفرى .. كان قد غير مظهره وأزال لحيته ولبس بنطلوناً فاتح اللون وجاكيت من الجلد فبدا

رجلاً رياضياً .. وكان عارى الرأس .. ودخل محل ليون وكاسكيت س. ج فى يده .. وأبدى قلقه للبائع ، فقال إنه كان يجلس بالأمس فى مقهى بحى مونمارتر وأخطأ أحد الزبائن فأخذ قبعته وترك تلك القبعة مكانها

– ويجب أن أستعيد قبعتى ، أليس كذلك ؟ يمكنك أن تقول أن أى كاسكيت يمكن أن تحل محل أى كاسكيت أخرى ، خاصة وأن هذه الكاسكيت من نوع جيد وأنها تكاد تكون على مقاسى .. ولكننى أفضل قبعتى على كل حال .. وحيث أن هذه الكاسكيت من محلك فقد خطر لى أنك تستطيع أن تساعدنى فى الاهتداء إلى .

قال البائع :

– طبعاً . س .ج . لقد أقبل هذا السيد صباح اليوم بالذات وجاء معه بقبعة مستديرة لكى أوسعها له وأنقش عليها الحرفين الأولين من أسمه .

واختفى فى غرفة داخلية وعاد بعد قليل ومعه قبعة مستديرة عرفها راوول على الفور .. كانت قبعته طبعاً .. وقال الرجل :

– هذه القبعة ليست من صنعنا ، ولكن بما أنه عميل مستديم .. يجب أن يعود اليوم بالذات .. إذا أردت أن تعطينى الكاسكيت فسوف أردها إليه وأسأله أن .

– إننى مضطر إلي السفر وسأتغيب بضعة أيام لسوء الحظ .

وبدا أن راوول دى ليمزى يوازن بين الأمرين .. وأقترب من المرآة ووضع الكاسكيت فوق رأسه .. وتأمل نفسه فى المرآه من جميع النواحى ، وقال البائع :

– إنها تناسبك تماماً .

– أنا أيضا أظن ذلك ، فلا داعي لتعقيد الأمور .. مهما يكن فإنني أفضل الإحتفاظ بها ولن يخسر عميلك في المبادلة وتبالي .. إنني أعتذر لإزعاجي لك بلا فائدة .. شكراً لك مرة أخرى ، ولا داعي لأن تتحدث عن زيارتي هذه .

خرج راوول دي ليمنري ونظر إلى ساعته .. الخامسة .. قد يطول الإنتظار وأعاد الكاسكيت إلى جيبه زيادة في الحرص ، فإن الشاب المجهول لم ير بالأمس غير هيئة رجل بشارب ولحية قصيرة وليست هناك أية فرصة في أن يعرفه .. وراح يتمشى من جديد .. وأحس بالتعب فدلف إلى مقهى صغير في آخر الممر وراح ينظر إلى الخارج من خلال الزجاج .

وبعد السادسة بقليل أقبل بائعو الجرائد من شارع مونمارتر مسرعين وهم يلوحون بجرائدهم ويصيحون :

– لا بريس .. ملحق .. لا بريس .. اقرأ لابريس .

ودخل أحدهم المقهى فأشار راوول إليه وبسط الجريدة .

اختطاف مدام سارازا ، زوجة النائب العام

وقرأ المقال مسرعاً وهو لا ينفك ينظر إلى محل القبعات .

" وقع أمر خطير أثار الاضطراب في إدارة الأمن فقد اختطفت مدام سارازا زوجة النائب العام الذي ساعد بالأمس على إصدار حكم الإعدام على رجلين من عصابة المخلب .. ووقع الاختطاف في ظروف غامضة ، فقد كانت عائدة إلى بيتها بشارع كورسيل بعد أن تناولت العشاء مع أبويها .. وكانت الساعة العاشرة تقريباً .. ولحظ بول كرواسيه ، سائق مدام سارازا عربة كبيرة واقفة أمام البيت تقريباً .. ولكن لم يكن هناك أي سبب يدعوه

للاحتراس فإن العربات الكبيرة كثيرة فى الناحية .. ووقع الهجوم عندئذ فجأة وتم فى بضع ثوان وفى دقة غريبة .

" فما أن فتح بول كرواسيه الباب لمدام سارازا حتى دفعه شخص داخل السيارة فى عنف ، فى حين ظهر رجلان فى نفس لوقت وأمسكا بالمرأة المسكينة من ذراعيها وأجبراها قبل أن تتمكن من الاستغاثة على ركوب السيارة الواقفة أمام البيت ، وهى سيارة من طراز مرسيدس .. وشاءت الصدفة أن يمر بالشارع فى تلك اللحظة شرطيان أثناء القيام بدوريتهما وسمعا صياح بول كرواسيه .. وتقدما للتدخل عندما تسارعت الأحداث فقد انطلقت سيارة المختطفين بكل سرعة مخلفة وراءها المجرم الذى اعتدى على السائق .. وقد أوشك هذا المجرم الذى لانعرف عنه غير أوصاف مبهمة على الوقوع بين أيدى الشرطيين لأنه حاول أن يقفز إلى سلم المرسيدس التى بدأت تبتعد ولكنه فقد توازنه ووقع على الأرض . ولا ريب أنه جرح فى ساقه لأنه سارع بالفرار وهو يعرج ولم يلبث أن أختفى فى منتزة مونسو ، وكان شاغراً فى مثل ذلك الوقت ، ومع ذلك فلم يقفوا له على أثر .. وقد أبلغ مسيو سارازا بالحادث ، وكان يقضى السهرة مع صديق له من القضاة فصاح على الفور " أنه المخلب " والواقع أن نظرية الانتقام تفرض نفسها على الأذهان .. " أنظر أخبار آخر ساعة "

وازداد فضول راوول دى ليمنرى وطوى الجريدة على الصفحة المذكورة وقرأ :

" المخلب ينتقم " .. العثور على جثة مدام سارازا "

* فى نحو الساعة الثامنة من صباح اليوم عثر بعض العمال وهم فى طريقهم إلى عملهم على جثة امرأة فى الأربعين من العمر فى حفرة بجوار

غابة بولونيا .. وقد أتضح إن المرأة المسكينة قتلت برصاصة أصابتها فى رأسها .. وكشف التحقيق الذى قام به القوميسير القدير ليجال أن القتيلة هى مدام كريستيان سارازا فهل كان فى خطة الأشقياء قتل زوجة النائب العام ؟ .. إننا نشك في ذلك لأنه كان فى مقدورهم قتلها فى بيتها بشارع كورسيل .. ألم يكن فى نيتهم بالأحرى تهديد النائب العام وابتزاز ماله لأن المعروف أنه رجل واسع الثراء ؟ أم تراهم أرادوا إرغامه على الأستقالة لمعاقبته للممارسة قسوته نحو اللصوص ؟ ولكن فى الامكان الأفتراض بمعقولية أكثر أن اللصوص كانوا ينوون إلحاق أكبر الأذى بأسرتهم ؟ ولا ريب أنها حاولت الهروب فكان مصيرها الموت برصاصة قاتلة .

وكما حدث مع جثة تاجر العاديات عثر على جثة القتيلة ببطاقة عليها هذه الكلمات :

" المخلب يفضل تسوية حساباته بنفسه "

هذه الجريمة التى يعلم الجميع خطورتها سيكون لها أكبر التأثير على شخصية النائب العام سارازا الذى يشهد له الجميع بالكفاءة والمقدرة وقد تلقى النبأ برباطة جأش تثير الإعجاب ، ونرجو أن يتقبل عزاءنا الصادق ."

* * *

طوى راوول الجريدة وهو يفكر .. إذن فالمخلب يريد أن يطبق عدالته بنفسه ، ولم يرض أن تحل المحكمة محله لمعاقبة الخائنين ولكن لاشك أنه أراد أيضاً أن يثبت أن النائب العام بممارسته عمله إنما هو عدو له فأصابه فى أعز مخلوق لديه لأنه يتكلم باسم الضمير العالمي ، ولأنه هو ، لمخلب ، يضع نفسه فوق القوانين وفوق الأخلاق فمن يكون هذا الرجل المخيف الذى يدير عصابة المخلب .

ندم راوول الآن لأنه أنقذ س . ج. ولكن لو أن البوليس قد ألقى القبض عليه فهل كان ذلك يغير شيئاً ؟ .. ما كان س . ج. ليعترف أبداً وهل المترف شوفينار أويرجون ؟ كلا .. إن الخوف أطبق فم كل منهما .. ومع ذلك فقد كانت القضبان تحرسهما .. وكذلك الحراس والجدران .. ولكنهما كانا يعرفان قسوة سيدهما وضراوته .. كانت العصابة كالحية ذى التسعة رؤوس وقطع رأس لن يخفف من حدتها .. كان لابد قطع الرؤوس كلها مرة واحدة والوسيلة الوحيدة لبلوغ هذا الهدف هى الارتباط بالصداقة مع مجهول منتزة مونسو .. وقال يحدث نفسه :

– ماذا دهاني ؟ .. هاأنذا أتحمس .. ومع ذلك فأنا على مايرام فى شخصية دى ليمنرى ، وليست هناك أية هموم ، وسوف أغدو شيئاً فشيئاً موطناً عادياً كغيرى .. إننى أقرأ جريدتى فى هدوء ، والجرسون يعتقد أننى رجل تواعد مع فتاة وتخلت عنه فلم تأت .. أليس هذا بديعاً ؟ .. لماذا أجند نفسى إذن ولماذا أتغلغل فى الأحداث كما لو أننى لم ألق منها الكفاية ؟ .. كفى يالوبين .

وكان لا يزال يراقب الممر .. وعلى الرغم من نصائح الحرص والاعتدال التى يلقيها على نفسه ، وعلى الرغم من لهجة التهكم والسخرية التى اتخذها ليرمى نفسه باللوم والعتاب فقد عصف به غضب أعمى .. وعندما رأى أخيراً س .ج . يتوجه نحو محل القبعات كان الأمر أشد منه فدفع حسابه وأسرع بالخروج .. وما كان أشد دهشته عندما اقترب من الرجل المجهول ورأى أنه شاب فى مقتبل العمر .. الثالثة والعشرون أو الرابعة والعشرون .. ولكنه شاب متين البنية قوى العضلات ماكان الشرطيان ليتغلبا عليه إلا بكل صعوبة .. كان قصير الشعر حليق الوجه كالممثلين .. وكان يعرج عرجاً خفيفاً وكانت بدلته الرمادية فى حاجة قصوى إلى المكواة .. ودخل الشاب

المحل .

كان لوبين لا يزال متردداً .. هل يجب أن يتبع الشاب ؟ .. لعله يمضى وينضم إلى أشقياء آخرين .. ولعله يعود إلى بيته فحسب .. لو أن لوبين كان فى سابق أيامه ، عندما كان يلتف حوله بعض امنائه لأقام حول س . ج. رقابة دائمة .. ولكنه الآن وحيد وعليه أن يغير طريقته .. ولهذا عقد النية على أن يأخذ بالمبادرة ، وهى طريقة طالما أفلحت معه .

خرج س .ج. وعلى رأسه القبعة المستديرة .. وكانت تكسبه نوعاً من الأناقة ، الأمر الذى جعله يبدو مضحكاً بعض الشئ .. وردد الشاب البصر حوله فى قلق فقال لوبين لنفسه :

– ياللشيطان ! لقد خالف البائع النصيحة التى أوعزت بها إليه ، وهو خائف الآن ويبحث بعينيه عن الرجل الذى رآه فى المنتز .. أهو هذا السيد هناك ؟ .. كلا .. كلا ياصاحبى .. ولا ذلك الآخر .. أنظر على مقربة منك .. على مقربة .. هاأنذا أضع الكاسكيت فوق رأس .. هو ذلك .. هل عرفته هذه المرة ؟ .. ماهذا الخوف ؟ كلا .. كلا .. ليس هذا بوقت الهرب .

وخطا لوبين خطوتين وأمسك بالشاب من ذراعه وقال :

– مساء الخير ياسبستيان .

– أنت ؟ .. هل تعرف أسمى ؟

أنفجر لوبين ضاحكاً وقال :

– تصور إننى كنت أشك فى ذلك .. إننى أقرأ فى كرة من الكريستال .. لا تنظر إلى هكذا ياسبستيان .. سبستيان ماذا ؟

– سبستيان جروز .

- حسناً .. أما أنا فأسمي راوول .. راوول فحسب .. أنا صديق ياسبستيان ألم أثبت لك ذلك في الليلة الماضية ؟ .. هنا .. إليك الكاسكيت وأعد إلى قبعتي ، فإنني أحس إنني عار بدونها .

قال سبستيان :

- معذرة .. لم أستطيع أنتظارك ، ولم أستطع أن أترك قبعتك هناك .

- إنني أفهمَ .. وأخذتها للذكرى .

وتبادلا قبعتيهما .. ولم يسع سبستيان إلا أن يضحك بدوره .. من يراه عن كثب يرى وجه غلام وعينين متألقتين توحيان بالود على الفور ولكن لاريب أنه خضع لتأثيرات سيئة لأنه أشترك في أختطاف زوجة النائب العام ، وهو ينتمي إلى عصابة المخلب رغم عينيه الجميلتين اللتين تنطقان بالصدق .. كان ينظر في دهشة وفي شئ من الود إلى ذلك الرجل المجهول الغريب في تصرفاته والذي يبدو أنه يأتي لمساعدته .. وقال أخيراً

- من أنت ؟

- أنا ؟ .. ولكن دعني أفكر قليلاً .. إنني أشعر بالحيرة دائماً .. نعم ، هو هذا .. أنا راوول .. مسيو راوول .. ولكن دعك من القلق ياصاحبي .. أنا إذا أردت ، زميلي .. أهذا يطمئنك ؟ .. مازلت قلقاً ؟ .. حسناً ، مارأيك في كأس من النبيذ لكي نزداد تعارفاً ؟

وجلسا في مكان هادئ بمقهى الكردينال ، وهو المقهى المواجه لمحل القبعات وقال سبستيان :

- لماذا أنقذتني ؟

- هذه عادة عني .. وعليه فلا فائدة من أن تشكرني .. يجب أن نساعد

بعضنا البعض فى مهمتنا هذه .

– ألم تجد مشقة في الإفلات منهما ؟.

– طبعاً لا ، فإننى لا أشكو آلام الروماتيزم بعد .

– هل تنتمى إلى إحدى؟

ابتسم لوبين وقاطعه قائلاً :

– إننى أعمل بمفردى .. لا رئيس أقدم له حساباً مثلك .. أظن أنك تعرضت لتوبيخ شديد .

اضطرم وجه الشاب وراح يتأمل كأسه فقال لوبين :

– لابأس .. وعملية الليلة الماضية ؟ .. هل نجحت أم فشلت ؟

– لا أعرف .

– حسناً .. أنت لا تريد أن تتكلم ، وهذا يشرفك .

– كلا ، ليس الأمر كما تظن .. إننى لا أعرف شيئاً وهذه هى الحقيقة .. صدرت إلينا أوامر وقد نفذناها ، وهذا كل ماهناك .. كان لابد لنا من زوجة النائب العام .

– ولكنهم لم يقولوا لك لماذا .. إنهم لا يقولون لك شيئاً وإنما يدفعونك ككلب الصيد ، وما عليك إلا الامتثال .

ألقى سبستيان كأسه وهم بالنهوض ولكن لوبين احتجزه قائلا :

– لا تغضب ياصغيرى .. إننى وضعت أصبعى على لوتر الحساس ، أليس كذلك .. ولكن أعترف أنك لست فخوراً من نفسك .. أنت لا تحب الدم ولا أنا .. ومن رأيي أن الإنسان يستطيع أن يقوم بأية عملية بنجاح تام من

غير أن يلوث يديه بالدم .

تمتم سبستيان :

– أود لو أن يسمعك وأنت تقول ذلك .

– من ؟

– هو .

– أعلم أنني لست ضد العنف ، فهناك حالات يجب أن يتصرف فيها الإنسان بسرعة وأن يبادر بالضرب .. ولكن الضرب ليس معناه القتل .

كان سبستيان يصغي في اهتمام بحيث أنه نسى كأسه .. وقال أخيراً :

– نعم .. هذا هو ماينبغى أن نفهمه إياه .. لقد سبق لى أن حاولت ولكنه لا يصغى إلى .

قال لوبين أخيراً بلهجة المزاح :

ذلك لأنك غرير العصابة .

أوه لا تمزح .. سوف ينتابك الخوف كما ينتاب الجميع .

– أتظن ذلك ؟

فكر سبستيان دون شك فى أن مسيو راوول يقرأ مايدور فى ذهنه كما يقرأ فى كتاب مفتوح .. وقال لوبين يحدث نفسه :

– مرحى ياصاحبى .. إن الفكرة تروق لك .. إن تذهب للزعيم بمتطوع جديد لكى ينسى أخطاءك هيا .. هيا .. إننى أوافق فهذا ما أريده .

وعاد سبستيان يقول :

– قلت لى إنك من نفس المهنة ؟

– هو ذاك .

– هل سبق لك أن قمت ببعض العمليات الهامة ؟ .

– إننى قمت بعمليات كثيرة ، وأنا متخصص بالذات فى المجوهرات القديمة واللوحات الفنية .

– ألم يحدث أن ألقى البوليس القبض عليك أو صدرت ضدك أحكام ؟

– أبداً .

– هل تقبل أن تلتقى بالزعيم ؟

– طبعاً ، بكل تاكيد .

– ألا يخيفك أن تجد نفسك أمام رجل شديد الخطر لا يمكن أبداً توقع ردود فعله ؟

– وما وجه الخوف ؟

– لا أدرى بالذات .. ومع ذلك فإننى أود حقاً أن تلتقى به وأن تعمل معنا فلعلك تستطيع أن تفرض أساليبك ، فإن بيننا من هم مثلى ، مذعورون من تطور الأحداث .. وسوف نخاطر .. جميعاً برؤوسنا بعد قليل كشوميتار وبرجون .

ألقى سبستيان كأسه الفارغ ونظر إلى مسيو راوول فى عينيه وقال :

– حسناً .. هل أقوم بالمحاولة ؟

– ولم لا .. إذا كنت تستطيع ذلك .

– إننى لا أعدك بشئ .. هل تستطيع أن تعطينى عنواناً أتصل بك فيه ؟ أو رقم تليفون ؟

– كلا . إننى آسف .. ولكننى واثق أن زعيمك سيقدر حرصى .

– حسناً .. عد غداً .. وليكن لقاؤنا هنا .. فى الساعة الرابعة .. وإذا لم ترنى غداً ولا بعد غد ولا الأيام التالية فذلك لأننى أكون قد فشلت .

قال لوبين :

– كلا .. إننى أمنح زعيمك أربعاً وعشرين ساعة ولا دقيقة واحدة أكثر أنا لست رجلاً يمكن التصرف معه كما يحلو له .

وكان لوبين قد تكلم ، على غير وعى منه ، بتلك اللهجة التى طالما أخضعت فى الأيام السابقة الإرادات لسلطانه وقضت على المقاومات .. وأحس سبستيان بتأثير هذه القوة وقال :

– حسناً .. سأخبرة بذلك .. أشكرك على هذه الكأس .

ومد يده فشد لوبين عليها ثم استدرك قائلاً وهو يهم بالخروج :

سبستيان ، لا يمكن إصلاحك حقاً .. إنك أخذت قبعتى للمرة الثانية صاح الشاب يعتذر :

– أوه ، معذرة .. إن الحديث أربكنى ولم أعد أدرى أين رأسى .

– كانت تحت قبعتى .. لا تنس .. أربع وعشرون ساعة .

***

٣ راوول فى الميدان

ذهب راوول فى اليوم التالى إلى مقهى الكردينال وهو يرتدى بذلة أخرى جاكيت غامقة اللون تكشف عن صديرى غريب الشكل مزرر حتى الرقبة وربطة عنق مشبوك بها لؤلؤة .. وكان يفكر :

- ليس رئيس المخلب من الغباء بحيث يأتى بنفسه لمقابلتى .. إذا أراد رؤيتى فسوف يكلف سبستيان بأن يمضى بى إليه لا أدرى أين .. فى وكر منيع .. وهناك سوف يسألنى عن سوابقى كما يشاء .. ومن مصلحتى أن لا أحاول المكر معه .. يجب أن أكون ذكياً ولبقاً .. ولكن .. إننى لم أستقر على شئ بعد .. مازلت أستطيع أن أستوقف مركبة وأمضى إلى الغابة وأقضى وقتى فى النزهة .. ولكن إذا أنا مضيت إلى هذا الموعد فذلك لأننى أريد ولأن هذا يروق لى ولأننى حر فى الاستمرار أو عدمه .. إننى ألعب بالنار .. ليكن ولكننى لا أريدها أن تحرق أصابعى .

ومع ذلك فقد أضطر أن يعترف بينه وبين نفسه بأنه غير صادق وأنه لا داعى للتردد والحيرة لأنه قد أتخذ قراره فعلاً وهو يرتدى ثيابه ويعبر حديقته ثم منتزه مونسو .. وقال فى ضيق :

- حسن .. سأمضى حتى النهاية لأننى مواطن شريف ولأن الوقت قد حان لكى أضع حداً لشرور هذا المجرم .. بمجرد أن أعرف عنه مايكفى

سأنقل القضية إلى المفتش جانيمار .. هذا هو هدفي الحقيقي فلن يضيرني أن يفرغ الناس من هذه العصابة .

– وأجتاز شارع أوبر ، وكان يبطئ في سيره كما اقترب من البوليفار كلا إن هدفه الحقيقي شئ آخر .. وكان يعرف ذلك ، فإن القوة التي تدفعه إلى العمل إنما هي الفضول ، فهو يريد أن يعرف .. يعرف بأي ثمن من ذلك الذي يختفي خلف هذا الإسم الغريب المضحك " المخلب " .. وإن يرى ذلك الذي يطمع في الحصول على القوة والسلطان على حسابه هو ، أرسين لوبين ؟ وبعد ذلك .. سيكون لديه الوقت عندئذ لكي يرى مايجب أن يفعل .

دلف راوول دي ليمنري إلى المقهى كاردينال .. كان سبستيان ينتظره في آخر الصالة ، ولكنه لم يكن وحده .. كان يجلس بجواره رجل يدل مظهره على الخسة والدناءة رغم أنه كان على شئ من الأناقة .. وأسرع سبستيان بالنهوض .. واكتفى بأن أحنى رأسه .. وقال سبستيان :

– لا فائدة من التقديمات .

وقال الرجل :

– إنني أتيت للملاحظة فحسب ، فقد أطنب سبستيان في الحديث عنك ، ولكننا نعرف أنه شاب سريع التحمس .. تفضل .

كانت لهجة الرجل جافة وقال راوول يحدث نفسه :

– لا تنس .. الوقار واللباقة في نفس الوقت .

وجلس .. وطلب كوباً من الشاي باللبن وقال :

– إنني مصنع إليكما .

وتكلم سبستيان فقال في ضيق ظاهر :

- إننى قلت كل شئ .. تدخلك عندما أوشكت أن أقع فى أيدى الشرطة ثم حديث الأمس واعترافاتك .

وكان الرجل لايزال يحدج راوول .. كان طويل القامة ، ضامر الجسم ، له أنف بارز جداً وشارب مفتول يكاد يخفى نصف وجهه ويدان طويلتان كيدى رجل مصدور ونظرة ثابتة نارية محمومة .

وقال لوبين في سره :

- وحش شديد القوة ولكنه ليس الزعيم بالتأكيد .. وهو واحد من أعوانه دون شك .. وقال فى غير أكتراث :

- نعم .. تحدثنا ، أنا وسبستيان .. لابأس بالمخلب .. قد تكون وسائله سريعة شيئاً ما ولكن النتائج لا تسر .. لاحظ أننى لا أنتقد ولن أسمح لنفسى بذلك ولكننى أتساءل فحسب :

- أليس من المستطاع الحصول على نفس النتائج بخسائر أقل ؟

ابتسم الرجل فى احتقار لم يحاول اخفاءه وقال :

- أتستطيع أنت أن تفعل أفضل منه ؟

- بكل تأكيد .

قال الوحش :

- كفاك هذراً ومضيعة للوقت .. أكشف أوراقك ولكن ، قبل كل شئ .. ماذا فعلت من الأعمال الباهرة حتى اليوم ؟

- حسناً السطو على مجوهرات شارع رويال فى لعام الماضى .. كان من عملى أنا .. وكذلك بنك الكريدى مونيسيبال وأننى أمر مر الكرام على

بعض العمليات الصغيرة لأنني لن أفرغ من سردها .. وأمامي الآن عملية أخرى .. فإنني أعد الآن خطة للسطو على مسكن خاص بشارع هنرى مارتن وأؤكد لك .. قاطعه الرجل قائلاً :

– هذا حسن .. أنا هنا بالذات لكي أتحقق من كفائتك وهي لا تبدو لي باهرة جداً .. أود أن أراك وأنت تعمل .

– هذا أمر سهل .. تعال معي .. إن صاحب المصرف الذي يقيم بشارع هنرى مارتن غائب منذ ثمانية أيام ويمكننا أن نعمل متى تشاء .. هذه الليلة بالذات .

بدا الوحش رغم ضراوته ، مشدوها في حين استطرد راوول :

– إنني أعددت كل شئ .. معي الأدوات اللازمة .. وستكون العملية لعبة أطفال كل ماهناك أنه يجب أن نخدر الخادم العجوز واقترح أن نفعل ذلك بالكلوروفورم فلا داعي لإستعمال العنف .

صاح الوحش :

– إن لك قلباً مرهفاً .. سوف نرى .. سوف نرى .. إذا قاوم فسأتولى أمره .. أين تريد أن نلتقي ؟

– ليكن أمام قصر تروكاديرو ، في تمام الساعة الحادية عشرة .. هل يناسبك هذا ؟

– أجل .

– واكرر لكما .. سيكون معي كل مايلزم .. فلا داعي لإحضار أي شئ .. ليرتد كل منكما قفازاً فحسب .. إلى هذه الليلة .

وانصرف راوول وهو راض عن نفسه للتأثير الذي أحدثه .. ولكنه كان

يشعر بالسخط على ذلك الذى دعاه برسول شؤم ، فهذا رجل لابد له من أن يعمل على إلقاء القبض عليه ذات يوم .. وضحك فى صمت وهو يفكر فيما اعترى الرجل من دهشة وذهول عندما تكلم عن عملية شارع هنرى مارتن كعملية طبيعية .

– أنت تريد أن ترى مسيو راوول وهو يقوم بالعمل .. حسن .. سوف يكون لك ذلك .. كل ماهناك أن هذا السطو لايجب أن يفشل .

وعاد لوبين إلى بيته وهو شديد المرح ، وقام ببعض الإجراءات وتحقق من طفاشاته ، ولم يكن قد أستخدمها منذ وقت طويل جداً .. وتناول كأساً من الشراب ثم أرتدى بنطلوناً أسود وجاكيت غامقة اللون وكاسكيت من الجلد اللين وحذاء من الكاوتشوك ووضع الأدوات وزجاجة المخدر ومطرقة فى حقيبة صغيرة ودس فى جيبه مصباحاً كهربياً .. وأقترب بعد ذلك من المدفأة وقلب صورة رايموند دى سان نيران فى رفق جاعلاً وجهها إلى الحائط وهو يقول :

– لا تنظرى يارايموند .. أؤكد لك إن قلبى لا يطاوعنى ، ولكن هناك إغراءات لايمكن استبعادها .. لا تنزعجى من أجلى فإننى أعدك بأن كل شئ سيكون على مايرام .

ومضى إلى الجراج ورفع غطاء سيارته وتأكد من صلاحيتها حتى لا تتعطل فيجد نفسه فى موقف محرج .

وفى تمام الساعة الحادية عشرة كان يقف فى ميدان التروكاديرو .. وانضم إليه رجلان على الفور وأخذا مكانهما فى السيارة فى صمت .. ولم ينطق أحد بكلمة .. وانطلق راوول إلى شارع هنرى مارتن ، ثم انعطف إلى شارع لابومب حيث أوقف السيارة فى مكان مظلم بين مصباحين وتمتم

يقول :

– سنقطع بقية الطريق سيراً على الأقدام .

وعادوا إلى الشارع وساروا نحو مائة متر ، وقال راوول :

– هذا هو المكان .

وأشار إلى بيت من طابقين تتقدمه حديقة يفضي إليها باب حديدى وأصدر أوامره فى ثقة كبيرة بحيث أن الوحش خضع لتأثيره فلم يفكر لحظة واحدة فى المناقشة .

– سبستيان ، إذا لاحظت شيئاً يدعو إلى القلق فصفر بأغنية " بجوار محبوبتى الشقراء " ثم ابتعد فى هدوء ويداك فى جيبيك ، ولا تبدى أي خوف

– مفهوم .

وتناول لوبين من حقيبته أداة معدنية رفيعة أدخلها فى قفل الباب الحديدى ثم أدار الأكرة فانفتح الباب على الفور .

– تقدمنى أنت الآن .

صاح رسول الشؤم :

– حسناً ولكن دعك من الخداع .

أغلق راوول الباب خلفه .. واجتاز الرجلان الحديقة ، وصعدا الدرجات الأمامية للبيت .. وفحص الوحش قفلى الباب مسرعاً ثم قال :

– هذان القفلان ليس من السهل اغتصابهما .

تناول راوول أداة أخرى دون أى تعجل وعالج القفلين لحظة وجيزة ثم دفع الباب بطرف أصبعيه وهويقول :

– هكذا .. معذرة ، سأتقدمك أنا هذه المرة .

وأضاء مصباحه الكهربي وأنار أرجاء البيت .. وبعد أن تأكد من خلوه أغلق الباب كما فعل مع الباب الحديدي .. وتمتم رسول الشؤم :

– هل جننت ؟ .. إذا اضطررنا إلى الفرار مسرعين فلن نستطيع .

– صه .. إذا كنت خائفاً فأخرج وقف بدل سبستيان .

هز الرجل كتفيه غاضباً وتبع راوول .. وتقدم هذا الأخير في صمت كالشبح ومضى نحو السلم في آخر البهو .. ووقفا أسفله يصغيان .. وسمعا في مكان ماعلى اليمين ، صوت عقارب ساعة حائط .. ومرت سيارة في الشارع وسرعان ماضاع صوتها في الليل .. وسلط لوبين شعاع مصباحه نحو الأرض لينير موضع قدميه ويوجه زميله ، ولم يصدر من الرجلين أي صوت ينم عنهما ، وبلغا بسطة الطابق الأول دون أي عائق .. وفجأة أمسك الوحش بذراع راوول وأرهف الرجلان السمع .. تناهى إليهما صوت جديد كان أحدهم يتكلم .. وانتظرا وقد حبسا أنفاسهما .. ومن جديد الصمت .. وفجأة أحس لوبين بأن اليد التي تمسك بذراعه تقبض عليه في انفعال وتهتز في نفس الوقت .. كان الرجل خائفاً وموشكاً على الانهيار .. حفيف ثوب ثم صوت مطواة تفتح فقال لوبين في صوت خافت :

– أعد المطواة إلى جيبك .

وصعد بضع درجات ثم قال :

– ولا تنفخ هكذا كعجل البحر .

هدأ الآخر بعض الشئ .. كانا الآن على مقربة من البسطة الثانية وارتفع الصوت مرة أخرى .. كان ينطق بكلمات غير مفهومة لا معنى لها .. غامضة ولاهثة .. وابتسم لوبين وقال .

– إنه الخادم العجوز .. لاريب إنه كابوس .

وتقدما حتى الممشى الذي يؤدى إلى الغرف .. وبلغ لوبين الباب الأخير على طرفى قدميه ، وأدار الأكرة فى بطء .. كان هناك سراج ليلى يعكس نورا ضعيفا على الفراش .. وأعد لوبين بهدوء ودقة طبيب البنج قطعة من القطن سكب فوقها بضع قطرات من الكلوروفورم ثم تقدم فى الغرفة بكل هدوء وانحنى فوق النائم وأطبق بقطعة القطن على أنفه فى قوة .. وكان التأثير سريعاً ، فلم تلبث أن مالت رأس الخادم فوق الوسادة .. وقال لوبين :

– طابت ليلتك .. نم كما يحلو لك أيها العزيز فيرمين .

شهد الوحش كل ذلك وهو مشدوه وقال يسأل فى سذاجة :

– ماذا ؟ .. أتعرف أيضاً أنه يدعى فيرمين ؟

– كلا .. ولكنه يستحق هذا الإسم .. انظر إلي وجهه .. إنه الإخلاص نفسه .. والآن إلى العمل .. إن الأشياء الثمينة تحت .

هبط لوبين هو وصاحبه بعد ذلك دون أن يتوخيا أى حذر وبعد أن تأكد لوبين أن نافذتى الصالون مغلقتان والستائر مسدلة أضاء الثريا .

وراح الوحش يردد البصر حوله فى ذهول وخوف وتمتم يقول :

– هل كل هذه اللوحات أصلية ؟

– طبعاً فهذه اللوحة التى ترى فيها طواحين من رسم روسيرايل .. أما لوحة تاجر البطيخ فهى من رسم موريللو ، ولوحة المجوسيين الثلاثة التى تراها هناك فهى لمملنج .. أما اللوحة التى عليها توقيع فان ديك فأظن إنها زائفة .

وكان يمشى فى بطء أمام اللوحات ويتوقف ثم يرتد إلى الخلف خطوة ويحنى رأسه .. وقال رسول الشؤم :

- لاريب إنه يجب أنْ نسرع .

رماه لوبين بنظرة احتقار ثم دنا منه ورفع قبعة عن رأسه قائلاً :

- يجب أن تقف باحترام أمام كل هذا الجمال .

زمجر الرجل قائلاً :

- حذار فإننى لا أحب أن يلمسنى أحد .

وهم بأن يخلع لوحة روسيرايل من مكانها لصق الحائط عندما قال له لوبين :

- هذا خطأ ياصاحبى ، فهذه اللوحة ليس من السهل بيعها .. إنما هذه اللوحات هى التى يجب أن نأخذها .

وأشار إلى لوحات أخرى فى آخر الصالون فقال الوحش :

- ولكن هذه لاقيمة لها .. إنها لوحات بغيضة .. بقع .. ومربعات .. هل تريد أن تهزأ بى ؟

قال لوبين فى اقناع :

- بل هذا هو المستقبل .. هذه اللوحات تساوى ملايين .. أرفع هذه .. وهذه .

ولم يحاول الوحش الأعتراض أمام كل هذا الإقناع رغم مافى صوت لوبين من احتقار وراح يرفع اللوحات فى نفور وهو يقول :

- إنها لاتصلح إلا للبراغيث .

وفجأة سمعا صفير سبستيان وعرفا لحن " بجوار محبوبتى الشقراء "

فصاح الوحش :

– لقد ضعنا .

وعلى الفور سمعا صوت فرامل تصدر صريراً عالياً فأطفأ لوبين الثريا وأزاح الستائر الضخمة وألقى نظرة من خلال النافذة .. ورأى سيارة أجرة تقف فى بطء فهمس يقول :

– هذا صاحب البيت .. باله من حظ سئ .. لم يكن ينبغى أن يعود إلا آخر الأسبوع .

أسرع الوحش فدس يده ى جيبه فقال لوبين :

– تأنى ! .. أراك متأهباً دائماً لاستخدام خنجرك .. أحرى بك أن تساعدنى .

وبدأ يعيد اللوحات مكانها .. وقلده الوحش دون أن يفهم شيئاً ولكنه كان فى منتهى الذعر وشجعه لوبين قائلاً .

– أمامنا كل الوقت ، فلابد من أن يدفع أجرة السائق وأن يبحث عن مفاتيحه .. أرأيت الآن إننى كنت على حق حين أغلقت الباب .. حذار .. إنك علقت هذه اللوحة بالمقلوب .. والآن ، اختبئ خلف الستائر ، ودبر أمرك لكى لا تتجاوز قدماك الستارة .

– سوف تدفع لى ثمن ذلك .

– نعم .. نعم ، ولكن أختبئ فى إنتظار ذلك .

وردد لوبين ضوء مصباحه الكهربى فى أرجاء الغرفة للمرة الأخيرة وفتح

باب البيت فى هذه اللحظة فتسلل خلف إحدى الستائر ، وأغلق صاحب البيت الباب فى هدوء ووضع فوق الأرض شيئاً ثقيلاً .. لم يكن هناك شك فى أنها حقيبة .. وأضئ مصباح البهو وسمع لوبين بعد ذلك صوت حفيف قماش .. تخلص الرجل من معطفه وقبعته بلا ريب .

ثم ، وفجأة ، أضيئت الثريا ودخل رجل الأعمال الصالون .. ومن مكانه خلف الستائر نظر الوحش من فتحة منها ورآه فى وضوح .. كان فى الأربعين من عمره ، قصير القامة ، أنيق القوام ، أخرج من جاكتته علبة سيجار وهو يتأمل اللوحات فى أرتياح كبير وهو جد سعيد بكنوزه .. وحك عود ثقاب وأشعل به طرف السيجار وأخذ أول نفس .

ومشى بضع خطوات جانباً واقترب من الستارة التى اختبأ مسيو راوول خلفها ، وقد فعل ذلك لكى يستطيع رؤية رتابة الغرفة الفسيحة ويتأمل انسجام الألوان وإتقان الأشكال والأشخاص .. وغير مكانه قليلاً وتوقف مولياً ظهره للستارة .

وحدث عندئذ شئ سريع بحيث أن الوحش خيل إليه أن قلبه يتوقف عن الحركة ، فقد برز ذراع من خلف الستارة ممسكاً بمطرقة .. ضربة صماء وقع رجل الأعمال على أثرها على ركبتيه ثم تهاوى على الأرض وأنفه فى السجادة وقد غاب عن الوعى .

وخرج مسيو راوول من مخبئه وتمتم :

– تستطيع أن تخرج الآن ياصاحبى .. أنحنى الوحش وهو مفتون تماماً فوق جسد رجل الأعمال وتمتم :

– هل مات ؟

– كلا .. ولكنه مغمى عليه فحسب .. ولكن أين كنا ؟ .. آه نعم .. المربعات .. عليك أنت أن تخلع اللوحات .

بينما كان الوحش يقوم بعمله اختار مسيو راوول سيجاراً من علبة رجل الأعمال وأشعله ، وجلس فى مقعد وثير وراح يراقب زميله .

– هناك فى هذا الركن لوحة صغيرة لكورو .. البحيرة تحت أشجار الصفصاف .. خذها هى أيضاً .. إن لك روح فلاح .. ثم لوحة بودان .. حسناً هذا محصول لا بأس به .. فلنخرج الآن أيها الزميل .

حملا اللوحات ونقلاها حتى الباب الحديدى .. وأقبل سبستيان :

– آه ، هل فرغتما ؟

– طبعاً .

– لقد تملكنى خوف شديد .. ماذا فعلتما بالرجل ؟

قال الوحش :

– إنه صرعه .

– أوه

كان فى هذه الصيحة مزيج من الأستنكار والدهشة فقال لوبين :

– اطمئن .. سوف يعود إلى وعيه .. انتظرنى .. سأحضر السيارة .

وماهى إلا لحظات حتى عاد بالسيارة أمام الافريز ، وكان الشارع لايزال مقفراً .. ولم يجدوا أية مشقة فى نقل الغنيمة .. وقال لوبين :

– يلزمنى شهر لتصريف كل هذا ، وسنقتسم الحصيلة معاً .. الثلاث لكل منا .. هل توافقان ؟

قال الوحش :

– أرجو أن يكون لديك مشتر أكيد ، فلا أريد أن تتكرر حماقة شومينار ويرجون .

قال لوبين مازحاً وهو ينطلق بالسيارة :

– يقيناً إنك بطئ الإدراك والفهم .. أعلم إننى إذا كنت قد اخترت رجل الأعمال هذا فذلك لأننى كنت أوقن مسبقاً أنه لن يقدم أية شكوى لأنه لا يريد اقحام رجال البوليس فى أعماله .. إننى أتحرى واتقصى قبل أن أقوم بأية عملية ، وأعرف دائماً أين أضع قدماى .. هل نفترق فى التروكاديرو ؟

– نعم .

حسناً .. سوف نلتقى .

وأوقف السيارة تحت الأشجار ، وهبط الرجلان .. ومد سبستيان يده وهو يقول :

– إننى أشكرك .. وأهنئك .

تردد الوحش وقال :

– ليس هناك مايدعو للمباهاة ، فهذا عملية صغيرة .

قال لوبين مصححاً :

– بل هى مجرن برهان .. أما العمليات الكبيرة فسوف تكون فيما بعد .

لم ينصرف الوحش ، بل أحتفظ بيد على باب السيارة ووقف يفكر ، وأخيراً قال :

– حسن .. موعدنا يوم الأثنين ، فى مقهى الكردينال دائماً ، فى الساعة الرابعة كاليوم .. سنمضى بك إلى الزعيم مادام كل شئ قد سار على مايرام ولكن لا أظن أنه سيحب وسائلك .

– سوف أرضيه على كل حال .

وأنتظر لوبين بضع دقائق قبل أن ينطلق .. وقام بدورة حول المكان فى بطء .. لم يكن هناك أحد .. وعاد عندئذ إلى شارع هنرى مارتن .. ووقف فى جرأة أمام بيت رجل الأعمال .. وعبر الرصيف فى خفة وفتح الباب الحديدى وأسرع إلى البيت .. كان الباب لايزال مفتوحاً فدفعه ودلف إلى الداخل .. وارتفع صوت من الصالون يقول :

– أهذا أنت أيها الزعيم ؟

– نعم .

وأضيئت الثريا وقال لوبين :

– هل آلمتك ؟

– تورمت رأسى .

كان رجل الأعمال المزعوم جاسأ فى مقعد كبير يحك رأسه فقال لوبين :

مسكين أنت ياصاحبى .. ومع ذلك فإننىلم أضربك بقوة .. أعترف أن الإخراج كان رائعاً .

وتحولا إذ سمعا أقداماً تهبط السلم .. ودخل الخادم العجوز .. وصاح لوبين :

– مرحى .. إنك كنت مدهشاً .

– أوشكت أن يغمى على حقيقة فإن يدك ثقيلة إيها الزعيم ، وهذا الكلوروفورم قلب معدتى .

– لقد أصابنا الصدأ جميعاً ياأولادى .. آه .. حان الوقت لكى نعود إلى العمل .

حك لوبين يديه ثم فرقع أصابعه وقال :

– أقسم لكما إننى استغفلتهما تماماً .. إن الرجل الذى كان معى ينتفض من الخوف .. لم أشعر بمثل هذا الطرب منذ أن ..

وتوقف وأكتسى وجهه بألم حقيقى وقال وقد تغير صوته :

حسن علينا الآن أن نعيد كل شئ مكانه .

قال رجل الأعمال المزعوم فى انفعال :

– أيها الزعيم ...

ولكن لوبين قاطعه قائلاً :

– تعال .. هل فهمت ؟ .. يجب أن نعيد كل شئ .

أفرغ الرجلان السيارة فى صمت ودقة وأعادا اللوحات مكانها ، فى حين جلس لوبين فى الصالون ويداه فى جيبه مباعدا مابين ساقيه وراح يفكر وهمس فيرمين وفى خجل :

– لقد فرغنا أيها الزعيم .. هل يمكن أن نصعد ؟

لم يجب لوبين ، ووضع فيرمين أصبعه على فمه وأتى بإشارة ، وهز الآخر رأسه وانصرفا على أطراف قدميها .

وبعد لحظة صاح لوبين :

فيرمين .

ثم أستدار وبحث عن خادميه الأمينين .. ومر بيده على جبينه كرجل استيقظ من سبات عميق ، ونظر إلى صورته فى المرآه الكبيرة التى تزين آخر الصالون وقال بلهجة الأعتذار :

- لم يكن لى خيار يارايموند .. يجب أن تفهمينى .

***

٤ تجربة رهيبة

بعد ذلك بيومين أذيع نبأ كان له أكبر الأثر على راوول دى ليمنرى وساعة كل الاستياء ، فقد راح باعة الجرائد يصيحون :

البوليس يعلن الحرب .. ثروة كبيرة لمن يرشد عن المخلب .

وأسرع فاشترى جريدة لابريس .. كان النبأ وجيزاً ومثيراً فى نفس الوقت فإن البوليس يعرض مكافأة قدرها مائة ألف فرنك لمن يدلى باعتراف يتسبب فى القبض على قتلة مدام سارازا .. مائة ألف فرنك .. لم يكذب باعة الصحف فإن المكافأة تعتبر ثروة كبيرة حقاً .

جاءت هذه المبادرة فى غير مناسبتها ، فقد تزداد شكوك زعيم عصابة المخلب ويتساءل ألا يمكن أن يكون ذلك الرجل المجهول الذى يبدو أنه يدبر أمره للإشتراك فى العصابة خائناً محتملاً .. إن راوول قدم ضماناته طبعاً ولكن مائة ألف فرنك .

وفى اليوم التالى ، وفى الموعد المضروب مضى راوول وذهنه مشغول بأفكار كئيبة إلى مقهى الكاردينال حيث وجد الوحش وسبستيان فى انتظاره .

وقال الوحش فى مرح بغيض :

- إنك تأخرت خمس دقائق والزعيم يحتم الدقة التامة فى المواعيد .

- حسناً .. لنرحل إذن على الفور .

- دقيقة واحدة .

أخرج الوحش من جيبه نظارة سميكة كتلك التى يستخدمها سائقو السيارات فيما عدا أنها مكثفة الزجاج بحيث تتعذر الرؤية عن يضعها فوق عينيه .. وقال راوول :

- ياللشيطان .. كأنها عصابة .. هل ستضع الأصفاد فى يدى كذلك .

أجاب سبستيان :

- كلا .. من الأوفق ألا تعرف أى طريق نسلك .

* * *

- أرجو أن تكون هناك كلمات سر وممرات سرية وشقة جدار تدور إننى أعبد الغموض .

نهره الوحش قائلاً :

- كفى مزاحاً .. هل تقبل أم لا ؟

قال لوبين :

- بل أقبل بكل تأكيد .. ولكن أنتظر على الأقل حتى أركب السيارة لكى ألبس هذه النظارة الجميلة

وخرج من المقهى بين الرجلين .. ودفعا به فى سيارة مرسيدس ، هى نفس السيارة التى استخدمها الجناة فى اختطاف زوجة النائب العام .. وجلس سبستيان أمام عجلة القيادة وجلس الوحش بجوار راوول ، وتأكد إن

النظارة محكمة فوق عينيه .. وقال راوول :

– اطمئن، فلن أحاول الغش ، بل إنني سأغفو قليلاً .

واضطجع في مكانه الوثير وأطبق عينيه ، ولكنه ظل واعياً تماماً لصوت العجلات والهزات وتحركات نصف جسده الأعلى التي تدل على الانعطافات والانحناءات .. وسمع أجراس عربات الترام ودبيب حوافر جياد.. ولم يلبث أن سمع صياح تاجر زجاج متجول .. لم يكن هناك ريب في أنهم يجتازون حياً تجارياً .. وانسابت السيارة تهتز ، وفجأة أرتفع صخب المحرك فأدرك أن السيارة تصعد منحدراً .. هل يجتازون مونمارتر أو فيلمونت أوسانت جنفييف ؟ لم يدر راوول تماماً .. لعلهم يقومون بدورة لافائدة منها .. ونام لوبين فعلاً زيادة في إزدرائه للوحش .. وكان لابد من هزة لكي يستيقظ .

– وا أسفاه !.. كنت أرى في منامي حلماً جميلاً .. أنتما متوحشان .. ولكنه كان قد استرد كل طاقاته .. وكان ذهنه على إستعداد لتسجيل أقل معلومة .

الرصيف .. وطرقة .. ورائحة تدل على مكان مقفول وسلم .. وأفضى بهم السلم إلى قبو لاريب إنه فسيح لأن وقع الأقدام كان له صدى وجيز .. درجتان .. وطرقة أخرى .. وأحس فجأة بأنه بلغ آخر المطاف .

– أجلس .

وجئ بمقعد عند سمانتي ساقيه فجلس في غير رفق .. ومرت بذهنه موجة من الأفكار .. إنه هنا .. ذلك الذي يبحث عنه البوليس .. ذلك الذي دنس الإبرة .. القاتل الشنيع .. خصمي .. إنني أجازف مجازفة كبرى .. ومع ذلك فأنا الذي سأتغلب عليه ، وأقسم على ذلك لأنه هو الذي أبغضه

أكثر من أى رجل آخر فى العالم .. أرنى نفسك أيها الوغد .

ونزعت يد نظارته ، واضطر أن يبذل جهداً كبيراً لكى يخفى دهشة رأى نفسه وسط قبو مقبب تنيره نصف دستة من المصابيح الغازية موضوعة فوق منضدة حديدية طويلة على هيئة هلال .. كان أمامه .. وراح يعد بسرعة تسعة رجال .. ثلاثة على اليسار وثلاثة على اليمين وثلاثة فى الصدارة ، وكانوا جميعاً متنكرين .. كان كل منهم يضع لحية طويلة ، وقد غيروا ملامح وجوههم بحيل مختلفة ، ولبس كل منهم باروكة ساعدت على تغيير صورته الأصلية تغييراً كبيراً .. وكان لوبين خبيراً فى هذا النوع من التنكر فقدر الجهد الذى بذلوه .. وحيا الموجودين فى رفق لكى يخفى اضطرابه .. كانت هذه الزمرة تبدو شديدة الخطر وأكثر تهديداً عن عصابة من الناس المقنعين .

ولكنه لم يلبث أن حول أهتمامه إلى الرجل الجالس أمامه ، وسط المائدة لم يكن هناك شك فى أنه الزعيم .. كان يجلس على مقعد كبير فى حين جلس الآخرون على مقاعد عادية .. وكان يبدو أنه تنكر بعناية خاصة .. معطف طويل مبطن ولحية طويلة شقراء تغطى قفاه وتجعل وجهه يبدو مكتنزاً ونظارة ذات زجاج ملون يخفى عينيه وخطوط ملونة وأخرى عريضة بالقلم الرصاص بدلت شكل صدغيه وقفاز أسود يخفى يديه .. كان يبدو كالمهرج وأشبه بتمثال الملابس الذى يعرض فى الفترينات فى نفس الوقت .

قال فى صوت خفيض لم يكن صوته الطبيعى بكل تأكيد :

– أهلاً بك اضطررت أن اتخذ بعض الاحتياطات معك ويؤسفنى هذا .. ولكن الحرص لايعنى الريبة .. الحذر فى مهنتنا هو أول الفضائل ، أليس

كذلك ؟

وأرجو أن تعتبر إذن إنك لست هنا أسيراً على الإطلاق ، وإنما ضيف .. بل إننى أذهب إلى أبعد من هذا .. أنت ضيف نعتز جميعاً بمعرفته ، فإننا نعلم إنك أسرعت إلى إنقاذ سبستيان .. وبهذه المناسبة ، أرجو أن تلتمس العذر لحماقة هذا الشاب ، فهو لا يفتقر إلى المواهب وإنما هو بحاجة إلى التدريب والمران ، وسوف نحرص على ذلك .. ونعرف أيضاً أنك قمت بعمل مدهش فى الليلة الماضية فقد قدم لى ماركو تقديراً راق لنا كثيراً .. كثيراً جداً .

إذن فان رسول الشؤم يدعى ماركو .. واحنى لوبين رأسه وقال :

– إنك تخجل تواضعى .

– كلا .. كلا وبهذه المناسبة أحى فيك ذوقك للفن لأننى واثق إنك من هواة جمع التحف .. وأنا أظن مثلك أنه يوجد جيل جديد من الرسامين ينتظرهم مستقبل باهر .. ولكن الأمر الذى يدعو إلى الضجر هو أنه لابد لنا أن ننتظر مدة طويلة قبل أن نجنى أرباحاً جوهرية من لوحاتهم .

أعجب لوبين بلهجة الرجل الهادئة الرقيقة .. وأسرع بالاشتراك فى اللعبة فقال :

– إننى أعرف فى نيويورك هواة على استعداد لشراء لوحات فان جوخ وموديليانى بأثمان باهظة .. بل وحتى لوحات اوتريللو .

قال الزعيم :

– هذا خبر هام .. أنا شخصياً أوثر الإنطباعيين أكثر ولاحظ لوبين من ركن عينه أن الرجال قد اشرأبت أعناقهم فى شئ من الشرود والفضول فى

محاولة لفهم مايسمعون .. وقال :

– هناك فنان جديد أنتظر منه الكثير .. فنان يدعى بيكاسو .

– أوه ، تماماً .. فإن لديه إشراقة العبقرية والابتكار .. ولكن يبدو لى أنه لايزال يبحث عن نفسه .

فكر لوبين فى شئ من المرح المتعمد :

– سوف يأتوننى بعد قليل بالشاى والبسكويت .. أوه ، إنه لأمر مضحك .

وقال الزعيم :

– إننى أحب الرجال الذين يقدرون الأمور من أول نظرة .. وبما أن الحظ قد شرفنى بزيارتك فإننى أود أن أسألك رأيك فى تلك المكافأة .. أعنى المائة ألف فرنك التى تكلمت عنها الجرائد .

عقد لوبين ساقيه وراح يتأرجح فوق مقعده .. ونظر إلى السقف كرجل يستجم عند أحد أصدقائه ويتأهب للرد على صاحب البيت بطيبة خاطر .

– أرى ياسيدى العزيز أن هذه المكافأة تعنى ثلاثة أشياء .. أولاً أن البوليس عاجز .

قال الزعيم موافقاً :

– حسن .

– ثانياً .. إن النائب العام فنسان سارازا هو الذى يعرض هذه المكافأة بالتأكيد .

هز الزعيم رأسه وقال :

– أحسن فأحسن .

– وأخيراً إن هذه المكافأة دعوة صريحة للخيانة .

صاح الزعيم :

– هو ذلك .. إن تحليلك يتفق مع تحليلى تماماً .

أردف لوبين :

– وأضيف أن سابقه شومينار المسكين وبرجون تثبت أن طعم المال يمكن أن يعزى أحد رجالك .

ودار بعينيه حول الرجال الحاضرين ، ولكنه أحس بنظرات حارقة من الغضب .. وانحنى الزعيم إلي الأمام وخفض صوته قائلاً :

– أصبت فى قولك هذا ، وإن بعضهم يفكر بالذات فى هذه اللحظة فى خيانتى .. ولكن الذى يقبل .. أو الذى قبل أن يشتغل لأجلى تعهد بالتزام الصمت فيما يخص عملياتنا مهما تكن .. أليس هذا طبيعياً ؟

قال لوبين وقد أحس بالانزعاج فجأة :

– طبعاً .

– وهو إذ يخرق القانون يعرف فيم يعرض نفسه .. الموت .. إن أمننا وسلامنا لن يتحققا إلا بهذا الثمن ، أليس هذا عدلاً ؟

– آه .. وهو عدل سريع التأثير .

وفكر لوبين :

– إن العاصفة فوق رأسى .. إنه يشتبه فى شئ .. وما هى إلا لحظة حتى يثبت الجميع على .. إننى بحثت عن ذلك.

وعاد الزعيم يقول :

- أعلم أن فنسان سارازا وصلته صباح اليوم بالذات مكالمة تليفونية من الجزائر .. تحدثت إليه امرأة .. قالت له إنها مستعدة إن تسلمه مستنداً على جانب كبير من الأهمية إذا تعهد بالوفاء بوعده .

حدثت بين الجماعة حركة دهشة وفضول .. واستطرد الزعيم :

- عرفت هذه المرأة على الفور من الذى قدم هذه المكافأة ولم تكشف عن اسمها .. ولم يكن باستطاعة النائب العام أن يعرفه على كل حال ، أما أنا فكنت أعرف اسمها تمام المعرفة .

ونظر إلى أفراد العصابة الواحد بعد الآخر ثم قال :

- إننى أتكلم عن مادلين فيريل .

همسات دهشة .. وضرب الزعيم بيده المكسوة بالقفاز على المائدة بضع مرات فعاد الصمت علي الفور وقال فى رفق يخاطب مسيو راوول لكى يوقفه على الأمر :

- وهذه المادلين فيريل كانت صديقة لشاب موهوب جداً كنا نكن له حباً كبيراً .. روبير ادرلان .. ولكنه كان يفرط فى الشراب لسوء الحظ ، وكان يكثر من الكلام إذا ماشرب .. وقد اضطررت إلى لتخلص منه .. هل تفهم ؟

- إننى أفهم .

- وعادت مادلين فيريل بعدئذ إلى أهلها فى الجزائر ، ولكننا كنا نراقبها ، وكنت أنوى إعادتها إلى باريس ، كنت أريد استخدامها فى العمليات الصغيرة ، وبهذا أضمن سكوتها ، ولكن فات الأوان الآن ، فقد عرضت على النائب العام أن تسلمه قائمة مكتوبة بخط روبير ادرلان بالذات تحتوى على سبعة أسماء من رجالنا .. وأنا واثق من القليل الذى ذكرته أنها لم تكذب

وإن هذه القائمة موجودة حقاً .. لقد كان ادرلان أكثر خطراً مما كنت أعتقد أكثر خطراً .. وكان يعرف الكثير .

قال لوبين وقد استعاد ثقته بنفسه واسترد رباطة جأشه :

– ولكنك أنت نفسك تعرف كل شئ .. إننى أهنئك.

– أشكرك .. صحيح إننا منظمون بطريقة لا بأس بها .. فلدينا آذان فى كل مكان وحتى فى الأماكن غير المتوقعة .. وطبقاً لمعلوماتى فإن مادلين فيريل ستبحر غداً صباحاً بالباخرة تيمجاد وستصل بعد ظهر الخميس إلى مرسيليا حيث تقضى الليلة فى فندق الكسندرا ، وستكون صباح يوم الجمعة فى باريس .

صاح أحد الرجال :

– يجب منعها من ذلك

ابتسم الزعيم ورفع يده لكى يدرك الجميع أن عناصر المشكلة كلها متجمعة فى ذهنه واستطرد :

– وأمس مساء وصلت إى مادلين فيريل فى الرقم الذى ذكرته للنائب العام مكالمة تليفونية .. وكان صوت محدثها يشبه صوت فنسان سارازا بحيث لا يمكن التميز بينهما .

وأمسك لكى يستمتع بتأثيره على أعوانه الذين أنفجروا ضاحكين .

– أقول أن صوته يشبه صوت فنسان سارازا وقد قال لها أنه فكر طويلاً فى الأمر وأنها أثناء رحلتها من مرسيليا إلى باريس ، وفى باريس بالذات ستتعرض لكثير من المخاطرلأن المخلب قد يعلم برحلتها وأنه يرى أن من الحرص أن يرسل إليها صديقاً يمكنها أن تعتمد عليه ويسلمها شيكاً مقابل

القائمة المذكورة .

ازداد ضحك أفراد العصابة وقد طاب لهم الأمر .. وقال لوبين :

– هذا جميل .

قال الزعيم :

– مهلاً .. وقد تمت الموافقة على أن يتم اللقاء مع الرسول مساء يوم الخميس فى الساعة الثامنة فى مطعم فرعون بالميناء القديم .

وحدق فى مسيو راوول وقال :

– وستكون أنت هذا الرسول .

– أنا ؟

– نعم .. أنت

– ولكن .

– ألم تقل إنك تريد الانضمام إلينا ؟.

– نعم .. ولكننى .

– هذه إذن هى الفرصة التى تحلم بهالكى تظهر لنا موهبتك .. وكفاءتك .

– إن أى رجل يمكنه أن يأخذ ويسلم شيكاً فى مرسيليا ويعود منها .

– هذا صحيح .. فى استطاعة أى رجل شراء هذا المستند كما يقول .. ولكن دورك أنت لن يقتصر على ذلك .

– إننى لا أفهم تماماً .

– أوه ، بل تفهم .

خيم الصمت على الرجال ونظروا إلى مسيو راوول فى حين قال الزعيم :

– سوف نقتل مادلين فيريل .

وكان ماركو واقفاً خلف لوبين مع سبستيان فلكزه قائلاً :

– أجب .

قال لوبين :

– معذرة .. إنني مذهول جداً .. ظننت إنني قدمت الدليل .

قال الزعيم موافقاً :

– إنك قدمت الدليل على مهارتك وشجاعتك ولكن يبقى عليك الآن أن تطيعنا .. لسنا بحاجة إلى قناصة يعلمون كما يحلولهم وإنما إلى رجال منظمين لا يحجمون عن أى شئ .. أي شئ ولست بحاجة مع ذلك لكى أقول لك أنك لاتستطيع النكوص على عقبيك لأنك تعرف الكثير الآن .

وقع لوبين فى الفخ وراح يفكر ويجمع كل وسائله ومايمكن أن يتفتق عنه ذكاءه .. سوف يفكر حين يصل إلى مرسيليا فى إحدى هذه الحيل التى طالما أنقذته فى أشد المواقف حرجاً .. ماعليه الآن إلا أن ينحنى وأن يمكر بقدر استطاعته .. قال :

– إننى لا أفكر أبداً فى النكوص ، بل إننى أشعر على العكس بالغرور ، فهذه مهمة تدل على الثقة التى تمنحنى إياها ، وإننى أقدرها كل التقدير .. سأذهب إذن إلى مرسيليا .. أما عن طريقة القيام بالعملية فأرجو أن تترك لى حرية العمل .

– كلا بالذات .. إن ماأريد معرفته هو هل أنت ، كما ذكرت لك الآن ، جدير بأن تتصرف كالآلة وأن تكون الأداة الفعالة لا رادتى ؟ ولهذا بالذات سوف نراقبك بطريقة سرية وسوف يتجسس عليك بعض رجالى فى الخفاء

سيبعثون إلى بتقاريرهم .. وإليك البرنامج الذى يجب أن تتبعه .. هناك مخزن برقم ٤ مكرر بشارع فوتريبه بحى مونمارتر .. وهذا هو مفتاحه ، وألقى بمفتاح قديم وثقيل أمامه .. ستجد سيارة من الطراز رولز رويس فى ذلك المخبأ وعليك أن تستقلها وتنطلق بها فجر الغد إلى مرسيليا .. أظن أن رجلاً مثلك يعرف كيف يقود سيارة .

أجاب لوبين :

– نعم .. ولكن لماذا ؟

أتى الزعيم بحركة تدل على استيائه وقال :

– سوف تكون بحاجة إلى هذه السيارة هناك .. أرجو أن لا تقاطعنى بعد ولما كنت لا أريد أن أفرض عليك رحلة مرهقة جداً ، وحيث أنه لافائدة من وصولك هناك قبل الموعد ، بكثير فسوف تقضى الليلة فى ليون .. فى فندق كومرس .. وستنطلق بعد ذلك إلى مرسيليا .. وهناك غرفة محجوزة لك فى فندق كولونى .. لا تخف .. إنها غرفة جميلة ، فإن المخلب شديد العناية بأعوانه .. وفى الساعة الثامنة من مساء يوم الخميس ستذهب إلى مطعم فرعون وتمضى إلى المائدة رقم ٩ .

لم يستطع لوبين أن يتمالك نفسه ، وبذل جهداً كبيراً وابتسم لكى يخفى مهانته وقال :

– ولعلى سأضع فى عروة جاكتتى زهرة حمراء .. أو أضع الجريدة المحلية تحت ابطى أو ..

قاطعه الزعيم فقال :

– سيكون معك أفضل من هذا بكثير .. شيك بمائة ألف فرنك .. وهذه

أفضل طريقة للتعارف .

وكما لو كان ساحراً بسط يده وفيها شيك ناوله الرجل الجالس على يمينه وانتقل الشيك من يد إلى أخرى متسببا فى عبارات استحسان وتعجب وحماس حتى بلغ لوبين

وقال الزعيم :

– مما يؤسف له إنك لاتعرف توقيع فنسان سارازا ولكن يمكننى أن أؤكد لك أنه مقلد تمام التقليد .. وقد حررت الشيك بتاريخ لاحق لكى يبدو الأمر حقيقياً لأن مادلين فيريل إمرأة ذكية ، ولا ريب أنها تعرف أن نائبنا العام المتشكك يريد أن يضمن ، قبل أن يتخلى عن نقوده إنها لم تعطه أسماء وهمية وأن تحرياته قد تقتضى عنه أربعة أو خمسة أيام .. وفى ذلك الوقت يمكن لما لين أن تقبض قيمة الشيك هذا إذا لم تكن قد تحولت أثناء ذلك إلى شبح .

ضحك أعوان الزعيم وقد طاب لهم الأمر .. وضم لوبين قبضتيه فى غضب فقد ألتقى بغريم توقع كل شئ ، ولم يرشده ذكاؤه بعد إلى الخدعة التى تسمح له بأن يأخذ المبادرة .. واستطرد الزعيم يقول فى صوت معسول :

– أنا لست قاسياً ، وليس فى نيتى أن أجعل هذه الفتاة المسكينة تتعذب .

وأخرج من جيب معطفة قنينة صغيرة ملوءة بمسحوق أبيض وضعها بجوار المفتاح .

– سوف تخدرها قبل كل شئ .. هذا المسحوق سريع الذوبان فى أى

سائل ، وخصوصاً فى النبيذ المعتق الذى أسمح لك بأن تطلبه ، وهو لن يغير لونه ولا مذاقه ، ولكنه سريع التأثير .. ماأن تتناوله مادلين فيريل حتى تبدو عليها علامات التعب والرغبة فى النوم .. سوف تعرض عليها عندئذ أن تصطحبها فى سيارتك حتى فندقها .. الكسندرا ، وهو يقع فى شارع برادو هل تعرف مرسيليا ؟

– طبعاً .

– تعرف إذن أن شارع برادو يؤدى مباشرة إلى طريق الكورنيش ، وهو طريق مواز للبحر ولا ينفصل عنه إلا بسور .. هل من الضرورى أن أقول لك الباقى أن المكان مقفر تماماً ابتداء من ساعة التاسعة والماء عميق .. وأضيف فأقول أنك لا تتعرض لأى خطر لأنك لن تكون بمفردك ، فقد سبق أن قلت لك إننا سنتتبع كل حركاتك ، وسنكون متأهبين للتدخل إذا ماالستدعى الأمر .

كانت اللهجة معسولة ومع ذلك فإن لوبين أدرك مافيها من تهديد ، وقال فى ثقة :

– هذا عمل هين .

– أليس كذلك ؟ سنراك إذن بعد خمسة أيام .. سيصطحبك سبستيان من المكان العادى وسيأتى بك هنا .. وستعطينا القائمة التى ستسلمك مادلين فيريل إياها مقابل الشيك .. وسوف تكون عندئذ واحداً منا .. ينتمى نهائياً إلى المخلب .. هل من سؤال ؟

– كلا .

– رفعت الجلسة إذن .. آه .. لحظة .. كدت أنسى أن أعطيك بدل

الانتقال لا تغضب ، فهذه قاعدة عندنا .

ووضع كيساً من النقود بجوار المفتاح والقنينة وآتى بإشارة فأخذ سبستيان الأشياء المذكورة وناولها للوبين ثم قدم إليه النظارة السوداء وأرشده إلى طريق العودة .. ويقى ماركو مع الزعيم .

قال سبستيان :

– سوف تجلس بجوارى ، ويمكننا أن نتحدث بهدوء .. لم أكن أجرؤ على ذلك أمام ماركو فهو شديد الخطر .. حذار .. ابعد قدمك فهى تكاد تلمس دواسة البنزين .. حسناً مارأيك ؟

– الحق إننى لا أعرف بعد .. أظن أن كل الأعضاء لم يكونوا موجودين ؟

– كلا فبعضهم فى مهمة ، ثم إن الزعيم لايجمعنا جميعاً أبداً فى وقت واحد .. آه .. إنه رجل عظيم ، له عقل سديد جداً .. عندما يشرع فى شئ نستطيع أن نمضى فيه ونحن مطبقى العينين .. إنه يكره الإرتجال ويعد عملياته بعد دراسة دقيقة ويرسم رسماً مصغراً للمكان بكل مافيه مهما صغر شأنه .. إنه كرئيس الأوركسترا الذى يشير لرجاله بعصاه .. أنت تقف هنا وأنت هناك ،، وهو يشير إلى مكان كل منا فى الرسم وبهذا يغدو كل شئ سهلاً .. وهذا هو السبب فى أننى أحب العمل معه .

قال لوبين :

– أظن أن مامن أحد يعرف وجهه الحقيقى .

– كلا .. والحق إن مامن أحد منا يحاول أن يحوم حوله أو أن يراقبه عن كثب .. إننا نحترم الفوارق الاجتماعية .

– صفوة القول إنه زعيم حقيقى .

– حقيقى ،فأنت قد رأيت ما ينقصه .. إنه ليس آدميا .. آه .. إن الأمر معقد ، فنحن ، من ناحية ، نعرف أنه لن يتركنا أبداً .. وأنا واثق أنه يفكر فى شئ من أجل شومينار وبرجون .. لعله يعد لفرارهما . على أن يعاقبهما بنفسه فيما بعد .. سيان عنده حياة الآخرين .. فهو لا يحسب لها أي حساب إليك مثلاً هذه المادلين فيريل .. هاأنت قد رأيت كيف حكم عليها بالموت بكل هدوء .. إنها تضايقه وسوف يتخلص منها بكل بساطة .. ستقول لى أنها خانت .. حسناً .. ولكن هذا سيان .. كنت أرجو أن تعرض عليه شيئاً آخر لا أدرى ماذا .فأنا لست إلا فتى صغيراً .

تمتم لوبين :

– فتى تافه .. لا رتبة له .. إنك تطرينى .. حسناً .. أستمر .

– ليس لى أى نفوذ كما تعلم ، أما أنت .

هذه المجاملة التلقائية مست أوتار لوبين فقال :

– ذلك إنه لم يكن لى أى خيار .. أما فيما بعد ، بعد أن يقبلوننى معكم حقاً فقد تكون هناك وسيلة لاقتراح أساليب أخرى .. ولكننى مضطر فى الوقت الحالى إلى مجاراته وأنا أقول له إن هذه المادلين فيريل لاتساوى كثيراً وأنها تستحق الموت حقاً .

وهبطت السيارة المنحدر الذى سبق أن ارتقته .. وكان لوبين يجتر أفكاراً كئيبة فقال :

– هل أستطيع أن ألقى عليك سؤالاً مكدراً بعض الشئ ياسبستيان ؟

– طبعاً .

– هل سبق أن ارتكبت أعمالاً .. ماذا أقول ؟

- أوه ، كلا

- ولكن كان لابد لك أنت أن تدلل على جدارتك ؟

- لم يطلب الزعيم مني شيئاً بعد ، ولم أقتل أى أحد .. ولكننى أشعر أنه سوف يجبرنى على ذلك ذات يوم .. وإذا أنا لم أجد الشجاعة ، فإننى أتساءل ماذا سيحدث عندئذ .. أستطيع أن أعترف لك أنت وأقول إننى لست شجاعاً .. إننى أتصرف بقدر ما أستطيع فى العمليات الصغيرة .. مثال ذلك .. إننى أستطيع معالجة الأقفال وأعرف كيف أقطع الزجاج .. هل ترى هنا كل شئ .. ولكننى واقع فى دوامة .

- وهل ستكون ضمن رحلة مرسيليا .

- أظن ذلك .. فهذا هو نوع العمل الذى يدخل فى اختصاصى .. ولكى سيكون معى رجال آخرون لا أعرفهم .. ربما يكون ماركو بينهم .

- يسرنى أن أعرف إنك ستكون بينهم .

قال سبستيان مندفعا :

- شكراً .

- هل تعرف هذه المادلين ؟

- كلا .. كل ماأعرفه عنها أنها امرأة جميلة وأنيقة جداً .. سيدة ليست كالفتيات الأخريات ويبدو أنها تنتمى إلى أسرة طيبة .

- أين نحن الآن ، إذا لم يكن سؤالى هذا تطفلاً ؟

- إننا فى شارع رويال .

- انزلنى هنا إذن فيكفى ماأنا فيه من ظلام .

ورفع لوبين نظارته ، ودعك عينيه ونظر فى سرور إلى الشمس وإلى المارة وإلى حركة يوم باريسي جميل .. وقال سبستيان :

- آه يامسيو راوول ، شد مايسرنى أن ينتهى كل هذا .. أرجو لك التوفيق .

وشد كل منهما على يد الآخر وهبط لوبين ووقف جامداً على حافة الرصيف فى حين ابتعدت السيارة .. وتحسس فى جيبه على المفتاح والكيس والقنينة .. لم يحلم .. بعد ثلاثة أيام سيكون قاتلاً أو .. وأردف :

- أو سيكون المخلب هو الذى تغلب على .. أيها الصديق الحميم أرسين لوبين إنك أوقعت نفسك فى ورطة لا تعدلها ورطة !

***

٥ ليلة المخدوعين

بعد أن فرغت مادلين فيريل من إجراءات الجمرك استقلت سيارة أجرة مضت بها إلى فندق الكسندرا .. وراحت تنظر خلفها مراقبة الشارع بصفة مستمرة من خلال الزجاج ، فإن توصيات فنسان سارازا ولدت فيها قلقا لم تستطع التغلب عليه أو لعل الفضول فحسب هو الذى كان يدفعها إلى النظر خلفها هكذا ، وإن من يراها وهى على هذه الحال ليقسم أنها فى شدة الحذر والاحتراس .

وقبل أن تدخل الفندق ألقت حولها نظرة أخيرة شملت المكان كله من جميع نواحيه ، ثم مضت إلى الاستقبال وهى ترفع نقابها قليلاً .. كان جمالها يلفت الأنظار ، والتفت أكثر من نزيل خلسة ليتأمل هيئتها الرقيقة المترفعة ورأسها المتعالية والمتحفظة فى إعجابوأسرع الموظف إليها قائلاً

– مدام فيريل ، طبعاً ؟

ونادى الحمال وخاطبه يقول :

– امض بالسيدة إلى الغرفة رقم١٣٦ .

كانت غرفة جميلة يدخلها النور من نافذتين كبيرتين تطلان على حديقة داخلية تتوسطها نافورة صغيرة تسبح فيها بعض الأسماك الحمراء

الصغيرة وخلعت مادلين فيريل قبعتها ودارت حول نفسها لكى تتأمل الغرفة التى راقت لها .. كان هناك سرير جميل مزخرف فى وسطها ومقعدان كبيران وثيران ودولاب بواجهة حلزونية ومرآة متحركة أمام منضدة الزينة ، ودولابان محفوران فى الجدار وسجادة زرقاء بنقوش بديعة تمثل سفناً شراعية تتبعها مراكب يرجع عهدها إلى العصر القديم .. وخلعت قفازها .. إنها الآن فى غرفتهاأخيراً وبمقدورها أن تستريح كما تشاء .. وقفة وجيزة أمام المرآة بعد أن أمالتها لكى ترى نفسها حتى قدميها .. كانت الرحلة طويلة مرهقة .. وبللت طرف منشفة ومسحت بها عينيها ثم فتحت حقيبتها وأخرجت منها أدوات الزينة وكتاباً ألقته على الطاولة بجوار الفراش وهمت بأن تمشط شعرها عندما سمعت ثلاث طرقات خافتة تكاد لا تسمع بحيث تساءلت إن لم تكن قد أخطأت وقالت وهى بين الشك إليقين :

– أدخل .

ولكنها لم تلبث أن تذكرت أنها كانت قد أوصدت الباب ، فأخذت كتابها ووضعته تحت ابطها وعبرت الغرفة وأزاحت المزلاج .. وتوقفت يدها على الأكرة ، فقد سمعت صوتاً خلفها يقول :

– ما كان يجب أن تقولى أدخلى وإنما أخرج

واستدارت على الفور وظهريدها فوق شفتيها لتمنع الصرخة التى أوشكت أن تنطلق منها ، فقد رأت رجلاً طويل القامة أنيق المظهر يخرج من أحد الدولابين وينحنى أمامها فى رفق وهو يدلك جبينه .

تقبلى تحياتى ياسيدتى ، وأرجو أن تلتمسى لى العذر واعلمى أننى شعرت بألم شديد فى هذا الدولاب الضيق لكى أكون رهن إشارك .. آه .. ساقى .. هل تسمحين .

وراح يقوم ببضع حركات رياضية دون أن يكف عن الكلام فى رفق :

– ليس من عادتى أن أعرض نفسى أمام السيدات هكذا .. وصدقينى إننى آسف .. يا إلهى ... جسمى كله يؤلمنى .. أريد أن أتحرك وأن أغير مكانى .. لاشك أنك لا تعرفيننْ معنى قضاء ساعة وأنا محشور فى دولاب ضيق جداً .. لا تفعلى هذا أبداً .. نصيحة صديق .. أنا الآن أحس ، وإن كانت ساقاى لازالتا تؤلمانى .

راحت تنظر إليه دون أن تفهم وقد سمرها الفزع مكانها وقالت :

ابق مكانك .

قال لوبين وهو يجر مقعداً :

– سمعاً وطاعة .

وتسللت بجوار الجدار ، نحو الجرس ، دون أن تكف عن مراقبته فقال لوبين وهو يمد ساقيه ويتنهد فى ارتياح :

– دقتان للخادمة .. إذا كنت ترين أن وجود شخص ثالث لابد منه فلا مانع لدى على الاطلاق .. ولكننى لو كنت مكانك لآثرت الهدوء فإن ماأريد أن أطلعك عليه يحتم السرية التامة

توقفت مترددة واستطرد لوبين :

– لو أن لدى نوايا سيئة لتصرفت بدلاً من أن أقول لك إنك جميلة ، وإنك لجميلة فعلاً وإن الاساءة إليك لتعد فظاعة وهمجية .. اقتربى .. لاتخافى .. كلا؟ .. أمازلت ترتابين ؟.. صحيح أن اختفائى فى الدولاب أمر لا يبعث على الارتياح ، ولكن ماذا ؟ .. أتريدين أن تأخذى حقيبة يدك ؟ .. إننى أسمح لك بأن تأخذى المسدس الصغير الذى بها .. هذا أمر طبيعى .. هيا .

مدت يدها وأخذت الحقيبة وشدتها إلى صدرها :

– هذا حسن .. والآن خذى المسدس .. نعم ، نعم .. إننى أريد ذلك ، ولا تنسى أن ترفعى صمام الأمان .. هكذا .. حسناً .. ألسنا الآن فى موقف أفضل يتيح لنا تبادل الحديث ، أنت ومسدسك فى يدك وأنا وركبتاى ترتعشان ؟

– من أنت ؟

اضطجع لوبين فى مقعده لكى يضحك كما يحلو له وقال :

– هذا غريب .. إننى اسمع دائماً نفس السؤال .. من أنا ؟ .. هذا رهن بك .. بالنسبة لك أنا الرجل الذى يجب أن تلتقى به فى مطعم فرعون فى الساعة الثامنة .

– أثبت ذلك ؟

– هذا أمر هين ، إذا تركتنى أخرج حافظتى دون أن يأخذك أى انفعال هل أستطيع ؟

ودس يده تحت سترته وأخرج حافظة جلدية أخذ منها شيكاً أراها إياه عن بعد :

– مائة ألف جنيه .. توقيع فنسان سارازا .. هل تصدقيننى الآن ؟

وأعاد الشيك إلى الحافظة والحافظة إلى جيبه :

– ماذا تفعل فى غرفتى إذن ؟

– سأفسر لك ذلك ، ولكن أعيدى هذه اللعبة أولاً مادمنا قد فرغنا من التعارف . لحظة واحدة .

ونهض واقفاً وسار على طرفى قدميه حتى الباب وأدار المفتاح فى سكون

ثم فتح الباب مرة واحدة وانحنى لكي ينظر إلى الخارج ثم أغلقه فى رفق وقال :

- نحن محاطان بالأعداء .. اقتربي بمقعدك مني ، ولنتحدث في صوت خافت لكي نلخص الموقف .. إنك تكلمت في التليفون مع النائب العام ، وعرضت عليه قائمة معينة ثم عاد النائب العام فطلبك على الفور بعد ذلك ليبلغك بأنه سيبعث رجلاً أميناً لمقابلتك لأنه يخشى أن يدعك تأتين حتى باريس .

- وأنت هذا الرجل ؟

- نعم ولا .. دعيني أفرغ من حديثي ولا تنزعجي .. لم يكن النائب العام هو الذي تحدث معك وإنما كان رئيس العصابة .. كلا ، لاتقاطعيني .. لقد تنصت البعض على مكالمتك الأولى .. كيف ؟ .. ومن ؟ .. هذا ماسوف اكتشفه .. وقد رسم زعيم المخلب خطة شيطانية على الفور ، فاتصل بك على أنه النائب العام ودبر هذا اللقاء فى مطعم فرعون .. يجب أن يسلمك رسوله شيكاً ويتسلم القائمة بدلاً منه .. ولكن ليس هذا كل شئ ، ففي أثناء العشاء يجب أن يضع ذلك الرسول مخدراً فى كأسك خلسة ثم يعرض عليك أن يصطحبك إلى فندقك لأنك ستكونين على وشك الإغماء ، وعندئذ يمضي بك وأنت غائبة عن الوعي إلى طريق الكورنيش حيث يلقى بك من فوق السور .

كانت مادلين فيريل شاحبة اللون ، ولم تجرؤ على التحرك .. وتمتمت تقول :

وهذا الرسول هو ؟

- هو أنا ؟ .. ولكن ها أنت ترين إنني خنته وكشفت لك أمره

– لماذا ؟

– آه ، لماذا ؟ .. ربما لأن هناك رجالاً أكثر حساسية عن غيرهم أمام الجمال وأكثر حرية .. ربما أكثر حرية بقلوبهم .. لاتذهبى بعيدا .. أريد أن أنقذك ، وهذا كل شئ .. سأنقذك إذا ساعدتنى .. هل تفهمين الآن لماذا اضطررت أن انتظرك هنا وأن اختفى كما فعلت ؟ .. لم أكن أستطيع مقابلتك فى مكان آخر .

– ولكن كيف حصلت على رقم غرفتى

– مجرد بقشيش لصبى الفندق .

قالت :

– شكراً .. أشكرك من سويداء قلبى .. ولكننا سوف نكون من الهالكين .

– أبداً .

– هل تظن أنك أقوى منه ؟ .. ليتك تعرفه ياصديقى المسكين ! .. كنت مجنونة إذ خطر لى إننى أستطيع أن أنتقم .. ماعلى الآن إلا أن أعود إلى الجزائر أو أن أختفى .

– فات الأوان .. إنك تعرفين هذه القائمة عن ظهر قلب ، أليس كذلك ؟ .. ستبقين فى خطر دائم إذن .

دفنت رأسها بين يديها وكررت فى صوت مضطرب :

– ياإلهى ! .. ياإلهى ! ..

سألها لوبين :

– هل تجيدين السباحة ؟

- نعم .. طبعاً .. إجادة تامة .

- من السهل إخفاؤك إذن .. وإليك مادبرته .. عندما نتفق سوف أتسلل إلى الخارج .. لن يراني أحد وأنا أخرج .. ثم إنني أعتقد إن هؤلاء السادة لن يبدأ اهتمامهم بي في الواقع إلا بدءاً من لقائنا في مطعم فرعون فسوف أنضم إلى مائدتك بصورة طبيعية إذن ، وستبذلين من ناحيتك مجهوداً كي لايبدو عليك الانزعاج .. وسأعطيك الشيك .. الشيك المزيف ، وتسلميننى القائمة .. ثم أثناء تناول العشاء تتركين حقيبتك تقع من يدك ، وتنحين لالتقاطها في بطء وعندما تعتدلين أكون قد دسست المخدر في كأسك .. خلسة طبعاً ، ولكن بطريقة بحيث يرى الذين يراقبونني حركتي .

وأخرج القنينة الصغيرة من جيبه وقال :

- وقد استبدلت المخدر بمسحوق آخر لا يؤذى .

أخذت المرأة الشابة القنينة وفحصتها متشككة ، وخضعت لدافع مفاجئ فأفرغتها في الحوض ثم ملأتها بعد ذلك ببضع ذرات من مسحوق الأرز .. قال لوبين :

- إنني أوافقك ، فيجب أن يكون الانسان حذراً مع الأشخاص الذين يخرجون من الدواليب .. أعطني هذه القنينة من فضلك .. شكراً لك .. يبدو أن مفعول المخدر سريع التأثير .. سوف تتظاهرين بالتعب فجأة وتسندين رأسك بيدك .. يجب أن تتظاهري بذلك بطريقة مقنعة .

- سأحاول .

- أما الباقي فسوف يكون سهلاً جداً .. سأعاونك حتى السيارة التي وضعوها تحت تصرفي ، وسأجلس بجوارك .. وفي الطريق إلي البحر .

مرت مادلين فيريل بيديها أمام عينيها وتمتمت :

– لاريب إننى أحلم .. إننى أصدقك ولا أصدقك .. ومع ذلك فإننى أشعر بأننى أثق بك ، ولكننى ما أن أفكر قليلاً حتى أخشى أن أستسلم لك .. كيف أعرف إذا كنت تقول الحقيقة ؟

– إننى دللت لك على ذلك .. كان في مقدورى الاستيلاء على تلك القائمة منذ وقت طويل .

– أوه .. إنها فى مكان أمين .

– هل تعتقدين ذلك ؟ .. إننى واثق إنها تحت غلاف هذا الكتاب الذى لم تتخلى عنه لحظة واحدة .. وبهذه المناسبة أريد أن أراها .. إننى كشفت لك لعبتى فاكشفى لى لعبتك .

حدقت فيه ملياً ثم بدأت تسحب ورقة من فتحة موجودة فى كثافة الغلاف ورقة مطوية أربع طيات وقالت :

– لعلى مخطئة .

ويسطت الورقة فى رفق وصقلتها فوق ركبتها وقالت :

– كلا ، كلا لا تلمسها .

إنحنى لوبين .. كانت ورقة منزوعة من دفتر سطرت فيها بعض الاسماء والعناوين .. وكان الخط غير مترابط وغير واضح تماماً .. هنا وهناك ، وفى أسفل الصفحة المشئومة تمتد بقعة من الدم .. كانت توقيع الميت .

قالت المرأة الشابة :

– قتلوه برصاصتين ، ولكنه ظل على قيد الحياة دقائق كثيرة .. ريثما

كتب أسماء الذين يعرفهم .

قال لوبين :

– واحتفظت أنت بهذه القائمة معك .. كان يجب أن ..

– لم أجرؤ .. كنت شديدة الخوف .. غادرت المدينة .. ولكن المكافأة الكبيرة المعروضة حملتني على أن أغير رأيي فإنني بحاجة إلى النقود .

قال لوبين :

– طبعاً .. هذا مستند دامغ ، وإذا سمحت لي فسأكتب منه صورة .. يكفي أن يعرف مسيو سارازا هذه الأسماء .. أما هذه الورقة الملوثة بالدم فسأسلمها للمخلب ، فلا يجب أن يشك في صحتها .

ودون الأسماء في مفكرة صغيرة معه ، وعندما فرغ طوى الورقة وأعادها إلى مخبئها وسألته :

– ألم تفكر في إبلاغ النائب العام بالفخ المنصوب له ؟

– أراك نسيت أن تليفونه مراقب .. وكذلك كل رسائله بالتأكيد .. توترت ملامح مادلين فيريل بشكل مفاجئ وقالت :

– كيف ستتصرف إذن لكي تسلمه القائمة ؟

– لايهم كيف ولكنني أؤكد لك إنني سأسلمها له .

– وتنال المكافأة بدلاً مني ؟

أمسك لوبين بيديها وقال :

– – اسمعي يامادلين .. أنا لست رجلاً شريراً وسوقياً .. أنا رجل " وتردد " .. وأخيراً .. ألا تدركين ما أتعرض له من أخطار ؟ .. أستخدمي

عقلك قليلاً .. إننى أعود فأقول لك .. كان فى مقدورى الاستيلاء على هذه القائمة .. حسناً ؟ سيوقع النائب العام على شيك سأقبض قيمته وأعطيك المائة ألف فرنك .

– إنك تثير دهشتى وفضولى .

استطرد لوبين :

– إننى فكرت فى كل شئ وأدنى وجهه من وجه مادلين بحيث أحست باشعاع إرادته وقال :

– أنت لا تعرفين ما أنا جدير به .. ما أن يولينى المرء ثقته حتى أستطيع أن أنقل جبالاً .

ووضع شفتيه على أصابع المرأة الشابة ثم غير لهجته وقال :

– فى طريق الكورنيش ، على مسافة خطوتين من المكان الذى سنفترق فيه يوجد بنسيون " الشجرة " ويديره زوجان متقدمان فى السن .. سوف تمضين إليه بعد أن تخرجى من الماء .. إننى أعددت اللازم ولن يشعر أحد بأية دهشة وهو يراك مبتلة ولن يلق أحد أى سؤال .

– وحقيبتى ؟

– من الطيش أن تسترديها على الفور .. لا تنس أنه لابد لك من الاختفاء سأفعل اللازم فى الوقت المناسب .. أين تريدين أن نلتقى ؟

– فى باريس.

– أليس هذا خطراً ؟.

هزت رأسها وأجابت :

–أولاً سيظن المخلب أنني لقيت حتفي ثم إن من السهل على المرأة أن نغير هيئتها .. سوف أخاف عليك أنت .

– يالك من ساذجة .. أنت إذن تقترحين باريس حقاً .

– نعم .. ثم إن لدى أسباباً خاصة تحملني على الذهاب هناك .

– حسناً .. سأنتظرك يوم السبت المقبل في الساعة الثالثة في مطعم رمبلمير .. هل تعرفينه ؟.. في شارع ريفولي .. سوف ترين أستاذاً وقوراً له لحية بيضاء ، ويرتدي سترة طويلة مجعدة ويغطي صدره بأوسمة أكاديمية .. خادمك .

ابتسمت لأول مرة وبدت عيناها السوداوان تتألقان .. وانبهر لوبين ونهض قائلاً :

– هل وضح لك كل شئ الآن ؟

أجابت :

– نعم أنك فكرت في كل شئ .. سوف أضع أمري بين يديك .

انحنى .. ومضى نحو الباب وواربه .. وألقى نظرة سريعة في الممر ثم التفت إليها وقال :

– تشجعي .

– إطمئن .

واختفى .

* * *

كان بواب فندق فرعون واقفاً يراقب العملاء وفوق رأسه مظلة كبيرة لأن

السماء كانت تمطر .. ورأى عربة رولز رويس تقف فأسرع ليفتح بابها وهو يقول لنفسه :

– رجل موسر .

كان الرجل يرتدى بذلة سموكنج من نوع جيد ويضع فى عروة جاكتته زهرة .. وابتهج البواب وعاد يقول :

– ثرى إنجليزى ، ولم يخب ظنه فقد تلقى بقشيشاً كبيراً .

وأمره راوول دى ليمزى أن يمضى به إلى المائدة رقم ٩ .. وكان قد أقبل قبل الموعد بقليل .. بهذا استطاع أن يلقى حوله نظرة فاحصة كان بالمطعم رواد كثيرون .. لم يكن مطعماً فاخراً جداً ولكن كانت تؤمه طبقة بورجوازية غنية ، ووقعت عيناه هنا وهناك على سيدات لايفتقرن إلى الأناقة .. ورأى سبستيان جروز جالساً أمام مائدة بمفرده ، وكان يرتدى أجمل مالديه ويبدو فى غير مكانة .. وأدرك لوبين سبب اخيار المخلب لهذا المطعم بالذات ، فإن أعوانه كانوا يبدون فى غير موضعهم لو أنهم اختلفوا إلى مكان أفخم .. ولكن من هو شريك سبستيان أو من هم شركاؤه لأن الزعيم أوضح له " لن تكون وحدك " سيتتبعون كل حركاتك وسيتأهبون للتدخل عند اللزوم .. أحسن راوول بنظرة غريم مجهول .. من ؟ .. أكثر الرواد كانت تصحبهم زوجاتهم ، ولم يكن هناك من يبدو أنه يهتم به .. أيكون النادل أم رئيس الخدم ؟ .. ولم لا ؟ .. هل ستعرف مادلين كيف تقوم بدورها جيداً ؟

فتح راوول قائمة الطعام ، ولكنه لم يكن يفكر فى الأصناف المكتوبة وقال يحدث نفسه :

– آه .. هل ستغازل هذه المرأة الشابة ؟ .. ولكن أيجوز أن أفعل هذا ؟

صحيح أننى كنت مضطراً أن أراها سراً ، لكن لم تكن بى حاجة إلى لعبة الدولاب هذه .. إننى أردت أن أبهرها ، ولى الحق فهى جميلة جداً ، ولكن ليس هذا عذراً ، فأنت تعرف أنها ليست سيدة .. وتذكر إنك قد عرفت سيدة حقيقية .

وتنهد ورفع عينيه .. كانت مادلين فيريل تدخل .. ونظر راوول إليها متأملاً رغماً عنه .. كانت ترتدى ثوباً بسيطاً وفضفاضاً بما فيه الكفاية لكى لا يعيقها عندما تسبح .. أما القبعة فكانت متماسكة جيداً .. سوف تطفو فوق الماء بدون مشقة حتى الصباح مقدمة الدليل على أن إمرأة قد غرقت .

حياها راوول مجاملاً بعض الشئ .. وأحنت هى رأسها فى حركة خفيفة .. لم يكن ينبغى لأى منهما أن ينسى أن هذا أول لقاء لهما .. وحدق كل منهما فى الآخر لحظة ثم جلست فى رفق بعد أن ألقت كتابها وحقيبتها فوق المائدة وتمتم لوبين :

– إنهم هنا .. كلا .. دعينى أتكلم .. تأكدى أنهم يراقبوننا فى هذه اللحظة .. يجب أن أقوم أنا بالحديث وأن تصغى أنت إلى فى حذر كأنك تتساءلين إذا كنت رسول النائب العام حقاً .. ومن الطبيعى أن لاأعطيك الشيك إلا مقابل القائمة ولكننى سأكون السابق لكى تطمئنى .. هاأنذا أسحب الشيك من حافظتى وأضعه فوق المفرش .. هاهو .. خذيه وافحصيه فى اهتمام .. أهتمام أكثر من هذا فهو يساوى مائة ألف فرنك بحق الشيطان .. والآن تظاهرى بأنك مقتنعة من حسن نواياى ، وضعى الشيك فى حقيبتك بهدوء .. انتبهى إلى الجرسون

وفحص راوول القائمة وقال :

– مارأيك فى المحار ياسيدتى ؟ .. حسناً محار وسمك قاروس .. مقلى

إنه خفيف على المعدة ومناسب تماماً للسهرة .

ونطق هذه الكلمات بلهجة ساخرة لم تفت على مادلين فابتسمت ابتسامة قصيرة .. وقال راوول يحدث نفسه :

– إنها ذكية وسيسير كل شئ على مايرام

وطلب نوعاً معتقاً من النبيذ ، وقال بعد أن انصرف الجرسون :

– هانحن قد أصبحنا وحدنا أيتها الصديقة العزيزة ، وعليك الآن أن تبدئى العمل فترينى كتابك فأنظر إلى عنوانه .. وتسحبين القائمة من الغلاف فى رفق وتبسطينها لى .. وهاأنذا أفحصها بنفس الاهتمام الذى أوليته أنت أثناء فحص الشيك ، وهاأنذا أبدو راضياً وأدسها فى حافظتى .. لاريب أن المخلب يطلق زفرة إرتياح الآن .

– كيف يمكن أن تكون بمثل هذا المرح .. إذا ارتابوا فى شئ فلن يرحموك .

قال راوول فى غير مبالاة :

– إن غداً لناظره لبعيد وهذا النبيذ لذيذ .. ولكن لا تتناولى منه كثيراً فلا يزال أمامنا أشق مافى الأمر .. آه لو أستطيع أن أستبدل مكانى بمكانك .. أن دور القاتل لا يناسبنى كثيراً .

– هذا هو مايثير حيرتى .. كيف ينتمى رجل مثلك للمخلب .. لاريب أنك تمر بمحنة قاسية

قال راوول وقد تغيرت لهجته :

– اسكتى .

وجيئ بالمحار والسمك . . ولزما الصمت بينما كان الجرسون يقوم

بالخدمة ، وبعد أن انصرف عاد لوبين يقول :

– يحق لنا الآن أن نبدو طبيعيين ، فقد ذاب الجليد ويتوقع أصدقاؤنا الآن أن أتعجل الأمر ويجب أن أحاول أرضاءك .. إن الطعام شهى والنبيذ لذيذ فتظاهرى بالاسترخاء لأن هذا يسهل مهمتى ويتيح لى أن أدس المخدر فى كأسك .. اضحكى من أجل سبستيان ، وسبستيان هو ذلك الشاب الطويل الجالس خلفنا ، بعد ثلاث موائد .. إنه ليس بذى خطر ومهمته تقتصر على مراقبتنا فحسب .. اضحكى أيضاً من أجل الأخرين الذين لا أعرفهم .. إننى أضع يدى فوق يدك ، لا تنزعجى ، فهذا جزء من الإخراج .. لو إننا فى أوقات أخرى ياعزيزتى مادلين لرقت لى جداً فأنت تديرين الرؤوس بسهولة ، تماماً كهذا النبيذ الوردى .. أوه .. لابأس بهذه الحركة الصغيرة الزاجرة .. الواقع أن بى ميلاً للمغازلة . فإن المرأة الجميلة هى نقطة الضعف عندى ، وبما أن الظروف تتيح لى أن أكون حنوناً .. فدعينى أقول لك أنك شديدة التأثير بشجاعتك الهادئة .

تمتمت تقول :

كف عن هذه اللعبة ، فهى لعبة قاسية .

– أقل قسوة من الحياة للأسف .. إنك فقدت الرجل الذى أحببته ، وأنا .. من يدرى ، لعلى أنا الآخر فى حداد ، ونحن نتناول العشاء الآن وحدنا فى هذا الجو الجميل .. لننسى إذن من نحن لحظة .. هذه لحظة جميلة ، حلوة ، مؤثرة حقاً ، ومحزنة .. إنني أرفع كأسي وترفعين كأسك وتتبادل عيوننا من فوق الكريستال اعترافات .. وقلوب جواسيسنا تنفطر .. أرجو أن تتذوقين هذه الدقائق النادرة ، ولكن فى انتظار الحلوى ، سوف توقعين حقيبتك .. هيا .

دفعت المرأة الشابة بحركة خرقاء من مرفقها حقيبتها فوقعت على الأرض ، ولكن قبل أن تجد متسعاً من الوقت لكي تنحنى مد رجل كان يتناول عشاءه على المائدة المجاورة ذراعه والتقط الحقيبة وقدمها لها وهو يبتسم فى غرور .. وشكرته المرأة وقالت لراوول :

– ليس الذنب ذنبى ، ولا أستطيع معاودة الكرة على كل حال .

– لاداعى للاستياء أنها الصديقة العزيزة .. أتريدين قليلاً من الجبن ؟

– كلا ؟ .. فاكهة إذن ؟

– برتقالة .

– جرسون .. الفاكهة من فضلك وفنجانٌ من القهوة .

– ماذا ستفعل الآن .

– مازال لدينا بعض النبيذ .. إننى آخذ القنينة وأخفيها فى كف يدى وأمسك بعنق الزجاجة .. أن القنينة وزجاجة النبيذ يتلامسان الآن .. إننى أضحك وأقول لك أفرغى هذه الزجاجة فتجيبنى ولكن فات الوقت .. النبيذ والمسحوق الآن فى كأسك .. نعم .. أنت لم تلحظى شيئاً ولكن الآخرين رأوا حركتى .

– أنت رجل غريب حقاً .

– اشربى .. والآن تبدأ اللعبة الكبيرة .. قلت لك أن التأثير سريع .

– أتقسم لى أنك لم تستبدلى مسحوق الأرز بمسحوق آخر .. إننى أوليتك ثقتى كالغبية .

– هذا صديقى هو فلفل الحياة .. أخدعتك أم لا ؟ .. خدرتك أم لا ؟ ..

اعترفى بأن الأمر ممتع .. كلا .. اطمئنى وتذرعى بكل شجاعتك .. ابدئى بأن تتثاءبي فى بطء ، خلف يدك .. نعم ، هكذا .. حسناً .. سوف نستمر فى الحديث ، وأقدم لك سيجاراً فترفضين بحجة أنك تشعرين بدوار .. وهاأنذا أبدى اهتمامى بك وأسألك إذا كنت تريدين أن نخرج .. تثاءبى من جديد وبطريقة أطول هذه المرة .. هذا رائع .. اخفضى عينيك .. سأستدعى الجرسون الآن فى حين تحاولين أنت النهوض .

سأله الجرسون :

– هل تشعر السيدة بتوعك ؟

– شئ بسيط .. مجرد دوار

وألقى راوول ورقة مالية فوق المفرش وأحاط خصر مادلين فيريل بذراعه وهمس

– إنهم يراقبوننا .. اعتمدى على فعلاً .

وتقدما نحو باب الخروج فى بطء .

– أرجوك .. لا داعى للحياء فى مثل هذا الموقف .. استرخى قليلاً فالمفروض إنك على وشك الإغماء .

فتح البواب الباب ورفع مظلته قائلاً :

– أتريد أن أساعدك .

– كلا .. شكراً .

تهاوت رأس المرأة الشابة فوق كتف لوبين فقال :

– افتح باب السيارة .. أسرع .

وأجلس مادلين فيريل فى المقعد الأمامى ومدد ساقيها .. ودس قطعة من النقود فى يد البواب ثم جلس أمام عجلة القيادة وقال فى مرح :

- حتى الآن عشرة على عشرة .. ومع هذا المطر لن يكون هناك أحد فى طريق الكورنيش ، وهذا من حسن الخط .. وإذا حدث والتقيت بأحد بعد خروجك من البحر فلن يدهشه أن يراك مبتلة .. حسناً يامادلين .. هل تسمعيننى ؟

وهزها فقالت :

- إننى خائفة وأكاد أموت من الخوف .. آه ، سوف أنجو فإننى واثقة من ذلك .. ولكننى كنت أشعر بالأمان فى ذلك المطعم .

وألقت برأسها فوق كتف زميلها ولزمت الصمت .. وتجاوزتهما سيارة .. وراح راوول يسوق بحذر مجففاً البخار الذى يتكون فوق الزجاج الأمامى .. وبلغ الكورنيش ، وكان البحر يمتد فى الليل ولكنه سمع أمواجه ترتطم فى هدوء بحافة الشاطئ عندما أبطأ وهو يبحث عن المكان الذى سبق أن أستدل عليه وقال وهو يدوس على الفرامل .

- هانحن قد وصلنا .. ستجدين ، بعد نحو خمسين متراً على اليمين طريقاً بين الصخور يمتد حتى الشارع .. والبنسيون يقع أمامه تقريباً .. هيا .

ودار بالعربة ، وحمل مادلين بين ذراعيه وهو يقول :

- لعلهم على مقربة ولكن تشجعى .. سأضعك فوق السور وعليك أن تعتمدى على عقبيك ، وسأتظاهر بأننى أدفعك بينما تغطسين إلى أبعد ما تستطيعين .

وحملها حتى السور .. ولم تطاوعه نفسه علي أن يتركها فقال :

– إنني غاضب من نفسي .. إسمعي .. إذا أحسست بأنك في خطر فاصرخي فأثب خلفك .. تبالي .. فليذهب هذا المخلب إلى الشيطان .

– كلا .. سيمر كل شئ على مايرم .. أؤكد لك

وفجأة ضغطت بيدها على رأس راوول من الخلف وجذبتها إليها وقبلته قبلة طويلة ثم تخلصت وتحولت عنه في خفة واختفت .. وانحنى فوق السور ، وبللت وجهه قطرات من الماء تناثرت عقب القاءها بنفسها في البحر .. ونبهه صوت محرك فاعتدل في وقفته ، واقتربت سيارة مطفأة الأنوار ومرت في بطء ولم تلبث أن أختفت في الظلام .. لم يكن العدو بعيداً .

***

٦ في عرين الأسد

في ذلك الصباح وقف رجل متورد الوجه يرخي عوارضه ويضع على عينيه نظارة وتدل هيئته على شيئ من الأناقة أمام بيت مسيو فنسان سارازا النائب العام .. وكان يتأبط حافظة أوراق صغيرة ، وراح يتأمل واجهة البيت في تقدير ثم صعد حتى الطابق الأول وطرق الباب في رفق .. وفتح له خادم نظر إليه من أعلا رأسه حتى أخمص قدميه ، كما لو كانت مهمته تقتضي اخبار الزوار ، وبدا له إن الرجل لاغبار عليه، خاصة وإنه ناوله بطاقة زيارة من نوع جيد ورأى أن في مقدوره أن يدعه يدخل إلى الصالون دون خوف وأن يمضي ليخبر سيده .

- تفضل ياسيدي .. سأخطر سيادة النائب العام .

وكان الصالون فسيحاً مفروشاً في بذخ ويسطع بالأنوار .. وجلس الرجل في حذر في طرف الأريكة ولزم الهدوء وحافظته فوق ركبتيه ، وألقى نظرة سريعة إلى بضع لوحات أثارت فضوله ، وأسرع بالنهوض وهو يسمع وقع أدام خفيفةو قادمة .. وكان القادم يمسك في يده بطاقة الزيارة كما لو كان يريد إعادتها إلى صاحبها ، وقال :

- أستاذ جوزيف بيشيرو .. إن سيادة النائب العام مشغول جداً لعلك

تستطيع أن تخبرني عن الغرض من زيارتك .. أنا سكرتيرة ريمون لونير .. ولكن تفضل بالجلوس .

قال الأستاذ بيشيرو :

- إنه لأمرمزعج حقاً .. إن مدام سارازا قد عهدت إلى مكتبي قبل موتها .. ويالها من ميتة بشعة ، أليس كذلك ؟ .. بوصية مرفق بها بضع أوراق يجب أن أسلمها للنائب العام شخصياً .. أنها مسألة سرية جداً .

قال السكرتير :

- هذا مفهوم .. ولكنني كنت أعتقد أن محامي مدام سارازا هو الاستاذ نادو .

- لا أستطيع أن أخبرك بأى شئ .

نظر ريمون لونير فى حيرة شديدة إلى الرجل الذى تكلم بلهجة جافة جداً وقال :

- حسناً .. سأبلغ سيادة النائب العام .

كانت تصرفاته المتكلفة تختلف مع مظهره وثيابه ومسلكه .. كان يبدو رجلاً رياضياً فى الثلاثين من عمره .. وفكر الاستاذ بيشيرو فقال :

" ليس من الصواب أن يشتبك المرء معه ، ولكنه يلبس بدلة من التويد الإنجليزى الفاخر " .. وانسحب السكرتير .. وتحول المحامى ، قبل أن يعود إلى مقعده لكى يتأمل قطعة ثمينة من الأثاث من صنع بول وربت عليها بيده فى رفق ثم عاد فجلس وانتظر فى هدوء .. وجاء النائب العام على الفور :

- أستاذ بيشيرو .. يسرنى أن أتعرف بك .

كان مسيو سارازا يرتدى ثياباً سوداء ، وكان وسيم الوجه ، روحانى القسمات حليق اللحية وسمة الحزن والملل ، غضنت جبينه تجعيدة عميقة ، وشعره الغزير ممشط إلى الخلف على طريقة بعض الفنانين وقد وخطه المشيب عند صدغيه .. وكان محدودب الظهر قليلاً رغم أنه لم يبلغ الخمسين من عمره بعد .. تبدو عيناه الرماديتان كأنهما فقدتا ومضة الشباب وكانت لهجته تدل على أنه رجل متعب إلى حد الإرهاق .

– ماذا أسمع ؟ .. أتكون زوجتى قد خلفت وصية ؟ .. ولكننا سنكون أحسن فى غرفة المكتبة ..سوف أتقدمك إذا سمحت .

واجتازا البهو الفخم ،، ودفع النائب العام بابا سميكاً مبطناً .. واستطاع المحامى بنظرة واحدة أن يلحظ أن غرفة المكتبة لا تقل فى فخامتها وروعتها عن الصالون ، فقد كانت مفروشاتها من أفخر الرياش ومن طراز أمبير ، تبدو فى مجموعها ثقيلة بعض الشئ ومهيبة جداً .. وجذبت اهتمامه على الفور لوحة لأمرأة شابة ترتدى ثياب السهرة وفى يدها مروحة صغيرة مبسوطة حتى النصف تخفى عنقها ، ولها وجه حزين تبدو كأنها تحدق بعينيها فى النائب العام الذى جلس أمام المكتب وقال لنفسه :

– هى زوجته .. ياللرجل المسكين ! شد ماأرثى له ، ولكن هذه اللوحة تفتقر إلى الفن ولا تساوى شيئاً .. وقال مسيو سارازا :

– حدثنى الآن عن هذه الوصية .

قال الأستاذ بيشيرو فى غموض :

– هل تستطيع أن تؤكد لى قبل ذلك أن أحداً لايستطيع سماع حديثنا ؟

أجفل النائب العام وقال :

– أعلم ياأستاذ أن هذه الجدران طالما سمعت قبل اليوم لكثير من الأسرار والاعترافات ، وأستطيع أن أؤكد لك أن هذه الأسرار أو الاعترافات لم يحدث أن تسربت منه قط .

– مما يؤسف له أنها لم تستطع الاحتفاظ بسر مكالماتك التليفونية كذلك

– ولكن ياسيدى .

– صه .. ولنتكلم في صوت خافت ، فإن ذلك أدعى إلى الحرص .. وقبل أى شئ فأنا لا أدعى بيشيرو ، ولست محامياً .. إنني انتحلت هذه الصفة لكى لاتثير زيارتى لك أى شك بين المحيطين بك ، فإن المحامى لايثير الشك عادة .. ومع ذلك فإنى مازلت استريب فى المخلب .. لأن المخلب فى كل مكان .. وحتى هنا .

ورفع يده لكى يدحض أعتراضاً للنائب العام وقال :

– إن مكالمة الجزائر التليفونية قد أكتشفت .. والدليل على ذلك أننى على علم بها .

– ماذا ؟ .. هل تنتمى إلى ؟ .

– أرجوك .. دعنى أشرح لك .. إن أعداءك يعرفون أن امرأة شابة تدعى مادلين فيريل أبحرت فى طريقها إلى باريس لكى تسلمك قائمة تضم أسماء بعض أعوان عصابة المخلب .

وأخرج من صديره ورقة مطوية أربع طيات وقال :

– وإليك القائمة .. أو بالحرى ، صورة طبق الأصل منها .

بسط النائب العام الورقة وهو مشدوه وقرأ الاسماء فى بطء ثم سأل :

– والقائمة الحقيقية ؟

- يجب أن أسلمها لزعيم عصابة المخلب .

قطب النائب العام جبينه وقال :

- آه .. ماهى اللعبة التى تقوم بها ؟

- وسيط يجازف بحياته لأجل .

وابتسم المحامى المزعوم ابتسامة غامضة واستطرد :

- لنقل لأجل العدالة بفضل صدفة غير متوقعة تصادقت مع شاب ينتمى لعصابة المخلب ، وعاوننى فى الاشتراك مع هذه العصابة الرهيبة حيث كلفنى زعيمها بانتظار مادلين فيريل فى مرسيليا وقتلها بعد أن استولى منها على هذه القائمة .. وهذا مافعلت ..

نظر النائب العام فى دهشة إلى زائره الغامض الذى يبتسم فى هدوء وتمتم :

- هل أفهم ؟

- كلا طبعاً .. إنها لم تمت

وروى له روبين رحلته إلى مرسيليا بالتفصيل .. وبدا الاهتمام الشديد على النائب العام وراح يقول من وقت اخر :

- مدهش .. عظيم .. لا أستطيع أن أصدق .

واستأنف المحامى المزعوم قصته قائلاً :

- وقد اتصلت بها فى صباح اليوم التالى فى البنسيون الذى نزلت فيه .. كانت تصاحب حديثها سعلة بسيطة ، فيبدو أن الماء كان بارداً ، ولكنها فى صحة لابأس بها على كل حال ، ولم تسترق الشيك الذى سأعطيها إياه من

طرفك .

– سوف أحرره على الفور .

–إه ، لاداعى للعجلة .. تستطيع أن تتحرى أولاً .

– أبداً .. إن هذه المرأة جازفت بحياتها ، ومازالت تجازف بلا شك وهى تستحق الكثير من الاعتبارات .

وأخرج سارازا دفتر شيكاته من أحد أدراج مكتبه وملأه بسرعة ثم بسطه لزائره قائلاً :

– إننى حررته لحامله طبعاً .

وراح يفحص القائمة مرة أخرى وهو يبذل جهداً خارقاً للاحتفاظ بهدوئه ولكن يديه أخذتا ترتعشان وهو يقول :

– أظن أن هذه أسماء الرجال ثانويين فلا أعتقد أن أحداً يعرف شخصية المخلب .

– لأحد طبعاً .. ولهذا أعتقد أنه لا يجب القيام بأى إجراء لإلقاء القبض على أحد منهم فى الوقت الحالى .. ومادم الحظ قد واتانى وانضممت إلى العصابة فأرجو أن تسمح لى بحرية التصرف .. سأنتهز فرصة ثقتهم بى لمعرفة المزيد ، وسأبلغك بما أعرفه أولا بأول إلى أن نستطيع التدخل بصفة فعالة .

– هل تعرف ما أنت مقدم عليه ؟

– نعم .. عند أول هفوة من ناحيتى سأكون من الهالكين .

هز النائب العام رأسه واستطرد :

- أود أن أصافحك ياسيدى .. إننى لاأعرف من أنت ولن أثقل عليك وأسألك لعل تنكرك أفضل طريقة لنجاتك ولكن لك الحق فى كل امتنانى .

وشد كل منهما على يد الآخر فى قوة من فوق المكتب .. ورفع النائب العام عينيه نحو صورة زوجته واستغرقته الأفكار لحظة ثم قال أخيراً :

- أريد أن أنتقم لها .. وسأعترف لك بشئ على أن يكون سراً بيننا .. إن فى نيتى أن أقدم استقالتى ، فنحن إزاء أعداء لا يحجمون عن شئ ، وأنا أعلم بحكم مركزى إن الوسائل القانونية عقيمة مع مثل هؤلاء الناس ولهذا سأسترد حريتى ، والعمل الذى أقدمت أنت عليه لايمكن إلا أن يشد من عزيمتى ، فأنت لايمكنك النضال وحدك .. كلا .. أريد أن أساعدك وإننى أضع ثروتى تحت تصرفك ويشرفنى أن أكافح معك .

فكر لوبين :

- لابأس به .. قد يكون بليغاً بعض الشئ ولكن مهما يكن فهذه مهنته .. ثم أنهم قتلوا زوجته ، وهو يتصرف تماماً كرجل أعرفه ، وهو بهذا يستحق كل تهنئة ، وكل ماأتمناه أن لا أجده بين ساقى باستمرار لأنه قد يزخر بالإرادة الطيبة ولكنه رجل قانون لاعهد له بالمخاطر والمغامرة .

وانحني وقال فى لهجة خطيرة :

- أنت تقترح على معاهدة تحالف ياسيدى النائب العام وأنا أقبل . يمكننا أن نبدأ العمل فوراً وهنا بالذات ولندرس الموقف .. إن المكالمة التليفونية مع مدام فيريل تسربت ، وواحد من إثنين .. أما أن العدو هناك فى الجزائر أو أنه هنا .. ويقول أخر ، إنه كان يتصنت فى أحد طرفى

الخط حتماً .. ولكن لو أنه كان فى الجزائر فما كان ليدع مادلين فيريل تصل إلى فرنسا .

– هذا مفهوم .

– إذن ؟.

مد المحامى المزعوم اصبعه نحو التليفون واختتم قائلاً :– إن لجدرانك آذاناً ياسيدى النائب العام .

تمتم فنسان سارازا :

– آه .. لا أستطيع أن أصدق .

– ومع ذلك فالأمر واضح .. كم جهازاً لديك ؟

– ثلاثة .. إن بالمسكن تسع غرف .. يوجد هذا الجهاز .. وهناك جهاز ثان فى مكتب سكرتيرتى والجهاز الثالث فى المطبخ ، وخادمى جول هوبيريه هو الذى يتلقى أغلب مكالماتى .

– معنى ذلك أن لديك سويتشا لتوجيه المكالمات إلى المكان الذى تكون موجوداً فيه ؟

– نعم .

– ولكن فى الإمكان استخدام هذا السويتش للتصنت على المكالمات كذلك ؟

ارتسمت أمارات اليأس والأرهاق على وجه النائب العام وقال :

– كنت شديد الثقة من إخلاص الذين معى .

– كم شخصاً فى خدمتك ؟

– ستة .. جول هوبيريه وزوجته جيلبرت .. وجول هو الذى فتح لك الباب وكانت جيلبرت فى خدمة زوجتى ، وهما يعملان عندى منذ أثنى عشر سنة ، ولم يحدث أن شكوت منهما أبداً .. وهناك أوجينى موربيه ، طاهيتى ، وهى فى السبعين من عمرها وقضت عشرين سنة فى خدمة والدة زوجتى ، وهى الإخلاص نفسه .. ويبقى بعد ذلك سائقى بول كرواسيه وصياحه هو الذى حمل الشرطيين على التدخل ليلة الاختطاف .

– والشخصان الآخران ؟

– آه ، نعم .. هما سكرتيراى ، لوسيان دييوا ، وهو الآن فى المحكمة ، ويعمل معى منذ خمس سنوات .. أما الآخر فهو ريمون لوفير ، وهو الذى استقبلك فى الصالون منذ لحظات ، ويعمل معى منذ ثلاث سنوات ، ولدى عن هذين الرجلين أحسن الشهادات وقد أخلصا لى دائماً .

– ولكن هذا لم يمنع المخلب من أن يكون على علم بالمكالمة .

ولزما الصمت .. كان النائب العام يفكر ويحاول عبثاً أن يقطع الحلقة التى سجن نفسه فيها .. كان ينظر من لحظة لأخرى إلى ذلك الذى أتاه وكشف الأخطار التى تحيط به ، فى حين كان المحامى المزعوم يداعب عارضيه ويدور بعينيه فى الكتب والاخبارات التى تملأ الغرفة .. وقال النائب العام أخيراً :

–لم تكن هذه المحنة كافية ولابد لى الآن من الحذر والارتياب .

– أجل .. ولكن من من هؤلاء الستة ؟

– ومع ذلك فانا لا أستطيع أن أطردهم جميعاً .

– كلا .. أبداً .. بل على العكس ، تصرف كأنك لاترتاب فى شئ يجب أن

أقدم الليلة تقريراً عن رحلتي لذلك الذى سيغدو رئيسي .. سأسلمه القائمة أن أحضر الاجتماع الذى سيعقد بعد ذلك ، ولا شك أننى سأعرف شيئاً جديداً .. هل تريد أن نلتقى هنا الساعة الحادية عشرة من صباح الغد .

– وقتما تشاء .. لن أتحرك طوال اليوم .

نهض لوبين .. وسأله النائب العام :

– وإذا أردت الاتصال بك ؟.. قد يقع حدث غير متوقع .

– سوف ينتظر الحدث .

– وإذا كنت أنت فى خطر ؟

– سوف ينتظر الخطر هو الآخر .. إلى صباح الغد ياسيدى النائب العام

شيع فنسان سارازا زائره حتى الباب .. والتقيا فى البهو بريمون لوفير وربت لوبين بضع مرات على حافظته وقال كشخص مهموم وهو يرد على تحية السكرتير :

– إن هذه الوصية تثير الكثير من المشاكل .

وتنهد فنسان سارازا عندما أصبحا وحدهما وقال :

– لعله هو ..

–صه .. سوف أتأكد من ذلك سريعاً .. لاتغير معاملتك لهم على الخصوص .

وهبط لوبين السلم بخطوات خفيفة ولكنه استعاد مظهره كمحام وقور وهو يمر أمام غرفة البواب وتمتم يقول :

– إن هذا اللوفير لا يوحى بالثقة .

كان سبستيان ينتظر مسيو راوول فى مقهى الكاردينال ، وبادره لوبين فى مرح :

– حسناً .. أين زميلك ؟

– إنه فى مهمة ، فى مكان آخر .. رأى الزعيم أننى أستطيع الأستغناء عنه .

– فيمن يثق ؟ .. فيك أنت أم فى أنا ؟ .

– فينا نحن الأثنان .

– هناك إذن فرصة صغيرة فى الانضمام إليكم ؟

– بل فرصة كبيرة .. كبيرة جداً .. هذا أمر أصبح مفروغاً منه عملياً .

– هذا أفضل .. جرسون .. قهوة .

– أسرع إذن ، فنحن فى عمل .

– ماذا ؟ .. دعنى أسترد نفسى أولاً وتنح قليلاً فإن لى الحق الآن فى الصدارة .

ووخزه فى ذراعه فى ود وقال :

– أهنئك .. أنك قمت بالعملية فى مرسيليا فى كتمان تام .. كم كنتم ؟ .. لم أر أحداً غيرك .

– كنا ثلاثة ، ولكنك لاتعرف الآخرين .

– هل تبعتمونى فى كل مكان ؟

– كلا ، فقد صدرت الأوامر لنا بمراقبة مطعم فرعون فحسب ، وذلك بدءاً من الساعة السابعة والنصف .. لم تكن هناك جدوى من المراقبة قبل

التقائك بمادلين فيريل ، وعلى كل حال كنا هناك لكى نخف لمساعدتك إذا لزم الأمر .

– والسيارة التى سبقتنا .. هل كنت أنت ؟

– نعم .

– وتلك التى التقت بنا على الكورنيش ، أكنت أنت كذلك ؟.

– نعم .

– استطعت إذن أن ترى أننى قمت بالعملية خير قيام .. وإننى ألقيت بها فى البحر .. كلا ياسبستيان ، لاتبتسم ، فإننى لست فخوراً بما فعلت فى الواقع ، وقد انبنى ضميرى كثيراً ، ولكننى كنت أردد فى نفسى لكى لا أتراجع وأقول أن هذه المرأة خانت ، وإنها بناء على ذلك تستحق الموت .

قال سبستيان :

– هذا ما كنت ما أردده لنفسى أنا أيضاً .. معاقبة الخونة .. هذا شئ مسموح به ، ولكن كان لابد من أعصاب قوية .. لقد نشرت جريدة مرسيليا خبر اختفاء مادلين فيريل فى صباح اليوم التالى ، وعثروا على قبعتها على سطح البحر كما وجدوا حقيبتها فى الفندق .. ويبحثون كل النظريات فى نفس الوقت الذى يبحثون فيه عن جثتها .. آه .. كانت العملية محكمة التدبير .. إن الزعيم رجل فريد فى هذه الناحية هل نمضى الآن ؟ .. لاتنسى النظارة السوداء هذا مجرد احتياط ، لن يكون هناك داع له بعد قليل .

سدد مسيو راوول الحساب وخرج مع سبستيان وجلس بجواره ووضع النظارة فوق عينيه .. وتأكد سبستيان أنها تغطى عينيه .

– لابد من الاحتياط فى النقاط الصغيرة كما يقول الزعيم .. هيا بنا .

وبدا للويين أن السيارة انطلقت فى طريق جديد وقال :

- أليس هذا نفس الطريق ؟ .

- كلا .. ولكننا سنمضى إلى نفس المكان .

- إننى اعتبر هذا التصرف إطراء لى ، فإن الزعيم يرى أننى أستطيع معرفة الطريق بالرغم من هذه النظارة .. إن النية حسنة ، وشكراً .

غرق مسيو راوول فى أفكاره .. لم يكف حتى هذه اللحظة عن إحراز الانتصارات فقد انقذ مادلين فيرات فيريل ، وتحالف مع سارازا وسيسلم القائمة للمخلب .. هذه الانتصارات الكبيرة التى طالما حقق مثلها فى الماضى سوف تقلب الموقف فى صالحه بكل تأكيد ، ومع ذلك فهو لم يكن راضياً ، أو بوجه أصح كان شديد الاستياء من نفسه فقد اهتم بهذه المسألة كثيراً ، وترك نفسه ينساق خطوة خطوة فى عمل كان يجد فيه متعة حسب أنه أقلع عنها .. كان يخون دوره ، ولكنه لم يكن يخون المخلب فإنه لايبالى به وإنما كان يخون ذكرى عزيزة لديه .. كان فى طريقه للنسيان ولكن هزمته شياطينه ، والقبلة التى منحته مادلين فيريل إياها كانت لاتزال تحرق شفتيه .. لم تكن هذه المرأة لتهمة طبعاً ولا هؤلاء الرجال الذين يشبهون التماثيل والذين سيلتقى بهم ، ولاحتى ذلك الزعيم الشاحب الذى يطيب له أن يقوم بدور ميلو درامى .. ولكن كان هناك كل الباقى .. اختطاف واغتيال مدام سارازا .. والقائمة الملوثة بالدم التى ضحى فى سبيلها بامرأة أخرى .. والعدو المجهول الذى يتجسس على النائب العام .. الخطر والغموض فى كل ناحية .. والمغامرة التى أخرجته من فتوره ونفخت فيه روائح الموت والحياة وأيقظت فيه حماسه السابق .. ففيم النضال .. ولماذا ينكر الحقيقة .. ولماذا يرفض متعة أن يكون هو الأقوى .

– أسرع .. إنك تبطئ كثيراً .

قال سبستيان :

– إننى أبطئ لأننا وصلنا .. أهبط سأساعدك ، وانتبه لدرجات السلم .

وانطلقا .. وعرف مسيو راوول الطريق الذى سبق أن أجتازه قبل ذلك ولم يلبث أن أدرك من هدوء المكان انهما دخلا غرفة الاجتماع .. ونزع سبستيان النظارة من عينيه

وحيا مسيو راوول المجتمعين ولم يلبث أن عرف فيهم نفس الأعوان السابقين ومعهم زعيمهم ، وكانوا جميعاً متنكرين تنكراً متقناً .

قال الزعيم :

– أجلس .. تفضل .. أظن إننا يجب أن نزجى إليك التهانى ، فقد برهنت على جدارتك وكفاءتك ، وهذا عظيم .. إنك احترمت التعليمات الصادرة إليك تماماً وهذا حسن .. ونحن جميعاً نرى الآن أنك تملك المواهب المطلوبة من أعواننا .. هل لك أن تتكرم وتعطينى القائمة .

وكان مسيو راوول يحتفظ بها فى يده على استعداد فناوله إياها .. وفحصها الزعيم فى اهتمام ثم ناولها للجالس على يمينه .. ودارت القائمة على الجميع وعادت أخيراً إلى الزعيم فأشعل عودان من الثقاب ، وعندما احترقت القائمة نثر رمادها ثم جفف أصابعه وأطلق تنهيدة ارتياح .

– أرأيتم الخطر الذى نجوتم منه أيها السادة ؟ .. إننى أقترح الآن أن نقوم باقتراع طبقاً لنظمنا ، سترفعون أيديكم ، الواحد بعد الآخر ، إذا رأيتم أن المرشح جدير بأن ينضم إلى جماعتنا .. إننى أبدأ بأقدمكم كما هى العادة .

والتفت إلى الجالس إلى يمينه فرفع هذا يداه على الفور ثم إلى الجالس بعده وحذا هذا الأول حذو الأول ولم يلبث أن رفع الجميع أيديهم الواحد بعد الآخر .. وقال مسيو راوول فى تواضع وتكلف :

–لم أكن أتوقع كل هذا فإن المهمة التى كلفتنى بها كانت دقيقة طبعاً ولكنها دبرت بدقة بحيث أن أى مبتدئ كان فى مقدوره إنجازها على أكمل وجه .. إن كل الاستحقاق يعود إلي العقل الذى خطط لها ودبر .

تمتم الجميع موافقين ، وعاد مسيو راوول يقول :

– إننى أشكركم .. لقد أسعدنى حقاً من هذا التصويت بالإجماع .

ابتسم الرئيس وقال :

– بالاجماع ماعدا صوت واحد .. والواقع أنه لابد لنا من استشارة شخص أخير .

وأتى باشارة من يده فمضى أحد الرجال وفتح باباً فى آخر القاعة .. وظهر شخص وتقدم ووقف بجوار الزعيم .

كانت مادلين فيريل .

* * *

عرف لوبين من المحن وتقلبات الدهر الكثير خلال حياته الحافلة بالمغامرات وواجه الأخطار ومواقف كانت تبدو لأول وهلة بلا مخرج .. ولكن لم يراوده أبداً أى أحساس بالفشل التام كذلك الذى وجد نفسه أمامه فى تلك اللحظة وحتى عندما أشتبك مع شرلوك هولمز ، وكان الاشتباك عنيفاً جداً كان قد أمن لنفسه مخرجاً أكيداً .. ولكنه الآن وقع فى فخ ألقى بنفسه فيه مغمض العينين بغباء وطيش ، وهما غباء وطيش سيدفع ثمنهما بحياته

دون أى شك .. ومرت دقيقة طويلة أحس فيها بالخوف .. ليس من هؤلاء الرجال الذين لايمثلون أى خطر والذين بدوا أشد خطراً وأكثر فزعاً منه وإنما من ذلك الرجل المتنكر بتلك الطريقة المضحكة والذى يجلس أمامه ويحدق فيه فى انتصار وينكر وهو يبتسم فى انتقام رهيب .

وأحس فى نفس الوقت بأكبر خيبة منى بها فى حياته فإن تلك المرأة قد هزأت به منذ أول دقيقة لأنها كانت شريكتهم والدليل أنهم جاءوها بمقعد وجلست بجوار الزعيم .. كانت المفاجأة قد أعدت بطريقة مسرحية لكى تحطم مقاومة مسيو راوول وتلجم لسانه وتتركه تحت رحمتهم .. وهكذا انخدع لوبين وجاء بقدميه إلى هذا القبو حيث ينتظره ماهو أسوأ من الموت .. فقد انفجر الجميع ضاحكين ضحكة كبيرة و راحو يتدافعون بالمرافق ويتهامسون بملاحظات ساخرة .. وعادت إلى ذهنه ذكريات لاذعة كان لها وقع الصفعات .. خروجه من الدولاب فى فندق الكسندرا وخطتهما المدبرة والعشاء فى المطعم والمخدر .. لاريب أن كل ذلك قد طاب لها كثيراً .. كان يعتقد أنه يخدع المخلب فإذا بالمخلب هو الذى خدعه لأنها من أعوان المخلب وبهذا يكون قد تناول العشاء مع المخلب وغازل المخلب وضم المخلب إلى صدره .. كان الأمر مضحكاً وغريباً بحيث لم يتمالك من الضحك رغم الغضب الذى كان يعصف بكل كيانه .. وصاح فى مرح :

– أعد .. هل لك أن تعيد هذا المشهد ؟ .. أود أن أرى السيدة تخرج من الكواليس للمرة الثانية .. الانتقام يتعقب الجريمة .. انتما مضحكان.

هوى الزعيم بقبضته على المنضدة وصاح :

– صه .. أؤكد لك إنك لن تفكر فى السخرية بعد قليل .

وتمتم سبستيان دون أن يحرك شفتيه وهو أشد شحوباً من الموت :

- كنت أجهل كل شئ .. أقسم بشرفي .

- إنني أصدقك أيها الصغير .

وتبادل الزعيم مع مادلين فيريل بضع الكلمات في صوت خافت ثم تحول إلى أعوانه ، وكان الصمت قد خيم عليهم فجأة وقال :

- مازالت صديقتنا متعبة ولا تستطيع أن تزودكم الآن بالتفاصيل التي تنتظرونها ، وسأزودكم أنا بها بدلاً منها .. ولكن اعلموا قبل كل شئ أن السيدة التي تكلمت من الجزائر مع النائب العام لاتدعى مادلين فيريل على الاطلاق .. هذه هي مادلين فيريل الحقيقية ، أما الأخرى ، وكانت صديقة روبير الدرين حقاً فقد لقيت المصير الذي تستحقه ، فبعد بضع ساعات من مكالمتها التليفونية قتلها عميل لي في الجزائر بناء على أوامري ، واستولى على القائمة وأتلفها .

وانتهى الأمر وكان في مقدوري التوقف عند هذا الحد ولكن خطر لي أن أجرب شخصاً بدا فجأة أن له رغبة شديدة في الانضمام إلينا .. والمتطوعون الأكفاء نادرون كما تعرفون .. وكانت الفرصة جميلة .. والواقع أن من المصادفات السعيدة أن مادلين فيريل كانت قد فرغت من مهمة خاصة بها في الجزائر ، وكانت تستعد للعودة إلى باريس .. وأظن أنه يجب أن أقول للذين لا يعرفونها من بينكم أنها برهنت على أنها على مقدرة كبيرة من المهارة والكفاءة .

خفضت مادلين فيريل رأسها ، ولم تلتق عيناها ولا مرة واحدة بعين مسيو راوول .. وعاد الزعيم يقول في بطء :

- وقد كان جمالها ورقة رابحة لي ، فإن مرشحنا هذا كان يمكن أن لا يهتم بمكافأة كبيرة ولكنه ما كان ليستطيع مقاومة تلك التي يجب أن يقتلها ،

ولهذا دبرت الخطة التى تعرفونها ، ومن المفهوم طبعاً أن القائمة الملوثة بالدم لم تكن غير قائمة مزيفة فإن الاسماء التى قرأتموها الآن ماهى إلا أسماء بعض التجار الشرفاء نقلت أسماءهم من دليل التليفونات كيفما اتفق .

ضحك الرجال ، وحمل الحماس بعضهم إلى التصفيق .. واستمتع الزعيم بانتصاره وجز لوبين على شفتيه .. عندما يبدأ النائب العام تحرياته ويرى أنه هزأ به فسوف يحتقر الرجل الذى قام بهذه المهزلة وابتز منه شيكاً بمائة ألف فرنك .. ولكنه لن يجد الفرصة للقاء مسيو سارازا لأنه لن ير ضوء النهار بعد اليوم .. أنه من الهالكين هذه المرة .

وعاد الزعيم يقول :

– لنر الآن ياصديقى .. أيمكن أن تفتقر إلى الإدراك السليم إلى هذا الحد ؟ .. ضع نفسك مكانى .. يطلب منا رجل مجهول لا نعرف عنه شيئاً على الإطلاق .. واعتقد أن أسم راوول إن هو إلا إسم مستعار يطلب منا أن ينضم إلينا ، فاحون من الحماقة والطيش بحيث أمتحنه فحسب وأضع بين يديه قائمة يتسبب الاقضاء باسمائها فى هلاك البعض منا .. لاريب أننى أكون مجنوناً عندئذ .. لاتقل لى أنك أنقذت الشاب جروز فإن هذا العمل ينقلب ضدك فإن البوليس جدير بكل الخدع .. أفلا تكون هذه إحدى ألاعيبه .. ألا يمكن أن تكون واحداً من رجال البوليس ، تحاول أن تستغل لقاء لم تكن تحلم به .. كان من الممكن أن نكون جميعاً فى السجن منذ وقت طويل لو أننى لم أعتد الا حتراس حتى من خيالى .

قال لوبين :

– والسطو الذى شاهده رجالك ؟

- صحيح أنه طمأنني ولكن ليس تماماً ، فإنني لا أؤمن بالبراعة التامة عند الآخرين .

- أهي تجرح كبرياءك ؟

- بل إنني اعتبرها دليلاً علىَ الوقاحة .

وهكذا بدأ النضال .. أفلح لوبين في جرح كبرياء غريمه .. وأراد أن يبالغ في ميزته التي حققها عليه فقال :

- أأكون قد أوحيت إليك بالقلق ؟

- لم يوح إلى أحد بأى قلق أبداً .

جاء الرد حاداً كالصفعة ودل على كبرياء الرجل وصلفه وتعطشه الكبير السلطان .. وأسرع لوبين بصفعة أخرى فقال :

-كانت هناك مادلين أيضاً ، لأنه لا يجب تعقيد الأمور .. أنك تزعم أنها أدارت رأسي ، ولكن ألا يمكن أنْ يكون العكس هو الذى وقع .

أرتد الزعيم في مقعده في حركة سريعة كالمبارز حين يرتد استعداداً لمعاودة الهجوم .. وارتدت المرأة الشابة في مقعدها هي الأخرى .. وخيم صمت مطبق .. واستطرد لوبين :

- ألا أكون قد أفلحت أنا فيما فشلت أنت فيه ؟

- لا أسمح لك أن .

- قولى له يامادلين ماذا حدث بيننا عندما احتويتك بين ذراعى .

صرخ الزعيم قائلاً

- كفى .. خذوه .

قال لوبين :

– الوداع يامادلين .

وأمسكه رجلان من كتفيه فى حين أطبق ثالث بالنظارة فوق عينه .. ولم يحاول المقاومة ، فقد كان يعلم أن ساعته الأخيرة قد دنت ، ولكنه كان مسروراً جداً لأنه أصاب عدوه اللدود بضربة شبه قاضية .. ودفعه الرجال الثلاثة دفعاً عبر طرقة طويلة رطبة ومضوا به دون رفق إلى قبو أغلقوا بابه عليه فى عنف .

وخلع نظارته ولكنه لم ير أى ضوء .. كان موجوداً فى جوف ظلام دامس بدأ يفحصه فى بطء ، ولم يلبث أن اقتنع أن الغرفة ضيقة وأنها لاريب كانت قبوا يخزنون فيه بعض البراميل .. كان للجدران صدى كثيفاً والأرض غير مبلطة ولا يمكن معالجتها إلا بالفأس والباب ضخماً لايمكن زحزحته .. كان فيما سبق يحمل معه فى جيوبه الخفية أدوات دقيقة طالما خدمته فى الظروف الحرجة وساعدته على النجاة من أشد المآزق حرجاً ولكنه لم يخطر له اليوم أن يأخذ معه شيئاً من هذه الأدوات التى تعيد إلى ذاكرته زمناً كان يتمنى أن ينساه .. لم يكن بمقدوره محاولة أى شئ .. ثم ، فيم المحاولة ؟ لقد عرف كيف يخرج محتفظاً بكرامته وهذا هو المهم .. أما الباقى .

وتحسس طريقة بحثاً عن مكان جاف بعض الشئ .. وجلس القرفصاء وظهره إلى الجدار كما يفعل الأسير فى يومه الأخير .. وراودته أفكار شتى .. سوف أختفى من هذه الدنيا وهى لن تخسر شيئاً يذكر .. خيل إلى لحظة بفضل مادلين أن كل شئ لم ينته .. إننى بحاجة إلي النور وإلى الدفء وإلى نظرة امرأة .. وأعرف ، لأن المرء يحس بمثل هذه الأمور ، بل أننى واثق أنها نسيت مجرد لحظة أنها تخوننى .. كانت أشبه بالحليقة .. وفى اللحظة

الأخيرة تلك القبلة .. إننى أفهم الآن ماذا كانت تعنى .. الحب والندم والحنان .. غريب أمر مادلين هذه .. كيف أحقد عليها.. أنها أعادتنى إلى نفسى مدة ساعة .. وأن أكون لوبين مدة ساعة فهذا شئ كبير أنه طعم الحياة الذى فقدته وقد أحسست به من جديد فوق شفتى .

عاد إليه الماضى .. ذكرى انتصاراته جعلت قلبه يعصف بالانفعالات كل تلك الانتصارات على جانيمار ودوبريك وحتى شرلوك هولمز .. رغم موت رايموند الفظيع .. وتلك الخطابات المرحة والساخرة التى نشرتها كل صحف فرنسا .. كيف ؟ .. أيكون كل هذا قد انتهى ؟

نهض وقد أستعاد نشاطه وراح يمشى جيئة وذهاباً .. خمس خطوات إلى الأمام وثمان إلى الخلف وهو يدق بيده على الجدران ويقول فى صوت مرتفع :

- إننى مازلت على قيد الحياة .. أيعتقد هذا المأفون إننى رجل أحمق .. صحيح إننى جئته بالقائمة دون أن أخشى أى غدر .. لابأس .. إننى خسرت الشوط الأول والذنب ذنبى أنا .. ولكن اللعبة لم تنته بعد ، وإننى على استعداد لأن أخسر الشوط الثانى كذلك بل والثالث وكل الأشواط التى يريد بيد أن الشوط الأخير سيكون لى ، وإننى أقسم على هذا .. لوبين هو الذى يقسم .. إننى أرفض الموت فى هذا الجحر .. أرفض أن أموت مختنقاً أو مسموماً أو برصاصة كأى رجل سوقى .. سأخرج من هنا لأننى أريد ذلك .. وسأسرع إلى النائب العام .. سأكشف له الحقيقة قبل أن يحرك عجلة البوليس ، ذلك لأننى أعرف جانيمار ، فسوف يسره أن يلقى القبض على الرجال المساكين المذكورة أسماؤهم فى القائمة .. أنهم أناس شرفاء أبرياء وما أن يكتشف بأنهم أبرياء حتى يصب على جام غضبه ويقول إنها لعبة

أخرى من ألاعيبى .. ماذا سيظن الناس بى ؟ .. أقدم الإبرة المجوفة لفرنسا لكى أنصب بعد ذلك على النائب العام وأسرق منه بضعة آلاف من الفرنكات ؟

كان يتكلم ويفوه بأى شئ ويسكر نفسه بالكلمات وهو يعلم أن كل ذلك لا فائدة منه .. ولكنه كان بحاجة إلي كل مداركه وكل نكائه وإلى تعبئة كل أعصابه للمعركة الأخيرة .

لأن زعيم المخلب البغيض قد لا يكون رغم الظواهر ، بذلك الدهاء الخارق الذى يريد أن يبدو به ، فلا ريب أن له نقاط ضعف ككثيره من الناس وإذا كان الأمر كذلك فإنه بقليل من الخطر .. ولكن لابد أولا من النجاه من هذا الفخ .

دار لوبين بالقبو دورة أخرى معاندا الواقع ، ولكن لم يكن هناك أى منفذ ولا أى باب سرى ولا كوة خفية ولا فتحة يمكنه الهرب منها .. وأطرق برأسه ويداه فى جيبه وراح يفكر فى تركيز محاولاً البحث عن وسيلة للهرب .. وزمجر قائلا :

– ياإلهى .. إننى بحاجة إلى معجزة .. كان هناك وقت كانت المعجزات فيه من اختصاصى كانت الجرائد تقول إننى ساحر .. ولكن كان من السهل الفرار من سجن السانتيه .. أما هذا القبو فشئ آخر

واقترب من الباب ومسه بيده كحيوان جامح وهو يقول :

– ماعلى إلا أن أقول افتح ياسمسم فينفتح

–وانفتح الباب

* * *

وسطع نور مصباح كهربى بهر عينى لوبين وارتفع صوت يقول :

- أنا سبستيان .

- إنك جئت فى الوقت المناسب .. كنت أهم بالخروج .. لحظة واحدة وكنت لا تجدنى .

- تعال .. اسرع .. إذا تحقق إننى .

كان الشاب مضطرباً ، وكان من الواضح أنه فريسة لرعب شديد .. وتقدم لوبين فى طرقة منخفضة السقف كثيرة الإنحناءات ، وكان يقف من وقت لآخر ويرهف سمعه .. وسأله لوبين :

- أين نحن ؟

ولكن سبستيان لم يكن مصغياً إليه .. كان يحدث نفسه ويقول :

آنهم سيطاردوننا حتما .. لن نذهب بعيداً .

وعاد يمشى مسرعاً ويكاد يجرى فى بعض الأماكن .. وتوقف أخيراً أمام باب وقال :

- يخيل لى إنه هذا .. كلا .. أظن إننى لم أخطئ .

ودفع الباب .. ودلفا إلى قبو آخر مرتب .. كومة من الفحم ترتفع فى ركن منه .. وبعض الحطب بطول أحد الجدران ودراجة معلقة من إحدى عجلتيها وهناك ، بجوار سلم حلزونى عربة أطفال .

- إننى عرفت الطريق الآن .

وأفضى بهما السلم إلى طرقة أخرى بها أبواب كثيرة تؤدى إلى بعض الأقبية وهمس لوبين :

- حذار .

ذلك إن رجلاً كان قادماً نحوهما وفي إحدى يديه قنديل وفى الأخرى دولو مملوء بالفحم فقال سبستيان :

- كلا .. إنه أحد السكان .

ومرا بالرجل الذى حياهما بطريقة طبيعية ، وبعد أن صعدا بضع درجات دلفا إلي دهليز يؤدى إلى فناء نشرت فيه بعض الثياب .. وأفضت بهما بضع خطوات أخرى إلى باب أزاح سبستيان مزلاجه وتسلل إلى الشارع .. وتبعه لوبين يدفعه الفضول إلى معرفة مكانهما ، وعرف ذلك على الفور لأنه رأى أمامه لافتة كبيرة فى الناحية الأخرى من الشارع .

كانا يقفان أمام ملهى المولان روج ، وقال لوبين وهو يهز ذراع سبستيان فى رفق :

- حسناً .. إنك تعرف كيف تعد المفاجئات .. وأين تجتمع العصابة ؟

- فى قبو كباريه قديم .. كباريه الميرليفلور .وأقبية هذا البلوك من المنازل يتصل بعضها ببعض

قال لوبين :

- كباريه الميرليفلور .. إنه يذكرنى فى بشئ .

- نعم ، كان الكباريه مشهوراً أيام المعرض ، ولكنه ، وبدون أى سبب ، فقد إعجاب الناس فأغلقت أبوابه وبقى مهجوراً سنوات طويلة .. وقد الزعيم زاعما أنه سيقيم فيه نادياً ، ولكنه استأجره ، استأجره فى الواقع لأن له ثلاثة أبواب .

- وبمعنى آخر فقد الليلة مقرا آمنا .

١١٢

– كلا .. فقد كنا سنهجر المكان على كل حال .. وهذه هى القاعدة .. لانبقى فى مكان واحد مدة طويلة .. فلننعطف إلى شارع دوويه فهناك أوقفت السيارة ،. وفحص سبستيان المكان فى قلق وقال :

– فلنسرع .. إذا أمسكوا بنا فمصيرنا الموت حتماً .

– دعنى أشكرك قبل كل شئ ياسبستيان .

– ماعليك .. إنك إنقذتنى وقد أنقذتك ، فلاداعى للكلام .

– بل لابد منه ، فأنت لم تعد فى أمان الآن .

– هذا صحيح .ولكننى لم أكن فى أمان قبل ذلك على أية حال .. آه .. مازالت السيارة هنا .. أسرع بالصعود .

ودار المحرك عند أول محاولة .. وانطلق سبستيان بالسيارة مسرعاً وهو يقول :

– نعم .. إننى أحسست أن الزعيم بدأ يرتاب فى فقد أخطأت أكثر من مرة .. أوشك البوليس بادئ ذى بدء أن يلقى القبض على فى منتزه مونسو ، ثم زعم ماركو إن الخوف استولى على بعض الشئ ليلة السطو بشارع هنرى مارتن .. وأخيراً ، لم أكن متألقاً فى مرسيليا ، فطبقاً لرأى الزعيم كان يجب أن أشك فى شئ وهو لايقر الخطأ أبداً .. ولهذا آثرت أن أكون السابق ، ونحن فى خطر معا طبعاً .. ولكننى أشعر بشئ من الأمان معك .

قال لوبين :

– هذا جميل .. ماذا حدث .. بعد خروجى الصاخب ؟

– كاد أن يجن من الغضب .. لم أره أبداً فى مثل هذه الحالة .. وإذ أقول أنه كاد أن يجن من الغضب فهذا تعبير لأنه ليس من عادته إظهار مشاعره

ولكن طريقته فى تحريك رأسه ويديه .. ثم إنه قال شيئاً لا أجرؤ على ترديده على سمعك .

- بل تكلم ياسبستيان .

- قال .. أريده أن يزحف ويتذلل أمامى .

- هل قال ذلك حقاً ؟

- نعم .

- عظيم .. وبعد ذلك ؟

- بعد ذلك .. كما سبق أن قلت لك .. عاتبنى وقال إننى غبى وغير كفء .

- مسكين أنت ياسبستيان .. أنت دائما شهيد .

- وأوقفنا على نبأ عظيم كذلك .. كان هناك اجتماع أمس فى إدارة الأمن .. يبدو أن نيتهم إصدار العفو عن أى فرد منا يعترف على المخلب .. أترى الآن .. العفو والمكافأة .

- إنك لم تحسن أختيار وقتك ياسبستيان .. سوف يتم تجنيد العصابة كلها ضدك وضدى فى نفس لوقت .. ولكن أين نمضى .. هانحن فى منتزه مونسو إنها فكرة ثابتة عندك .

- لعمرى هذا صحيح .. إننى إنطلقت بالسيارة كيفما اتفق .. كان المهم أن ابتعد عنهم كثيراً .. هل تريد أن تهبط ؟

- كلا .. بل استمر ، فما زالت هناك نقطة تثير قلقى ، ولا بأس بنا فى هذا السيارة لكى نتبادل الحديث .. كيف أنتهى الاجتماع ؟

- لا أدرى .

– كيف ؟

– ذلك إنني انصرفت قبل أن ينفض ، فالزعيم لا يستبقى بجواره إلا أعوانه القدامى جداً ، ويتحدثون عن العمليات القادمة فيما بينهم .. ويرسمون الخطط دون أستشارتنا نحن المبتدئين .. ولهذا صرفونى مع غيرى .

– كم كنتم ؟

– خمسة .. وقد دبرت أمرى لكى أكون آخرهم وانتهزت الفرصة لكى أنقذك لم يكن ذلك عسيراً لأنه لم يكن هناك غير مزلاجين رفعتهما .

– هذا صحيح .. لم يكن ذلك عسيراً .. هذا هو ما يقلقنى بالذات .

وضع لوبين ابهامه فى جيبى صديره ، واضطجع فى مقعده إلى الخلف لكى يفكر كما يشاء .. كان هناك شئ مريب فى هذا الإنقاذ غير المتوقع .

– سبستيان .. قف هنا .

– ماذا يقلقك يا مسير راوول .

– آه ، ليتنى أدرى .. تصور أنك الزعيم وأنك تقبض على رجل تبغضه ولا تريد أن تطلق سراحه مهما يكن ثم تلقى به فى غرفة ليس بها غير مزلاجين عاديين يمكن لأى مخلوق أن يرفعهما من مكانيهما ، زد على ذلك أنك تتركه دون حراسة ومن غير أن تفتشه .. أيبدو هذا الأمر طبيعياً .

قدم سبستيان سيجارة للوبين ولكن هذا الأخير رفضها .. ونفث الشاب نفساً طـويلاً فى شئ من التفكير وقال :

– – آه .. الأمر كما تقول غير طبيعى بالتأكيد .. هل تقصد أن تقول أنه أراد أن يعرف أن كنت سأنتهز الفرصة .

– أنت أو غيرك .. هل بقيت مادلين فيريل معه ؟

– آه .. نعم .. إنني أفهم .. كان في مقدوره أن يمتحنها هي الأخرى .. كنت أنت الطعم ..

لم يكن يدري من الذي سيهرع لنجدتك .. من يدري .. لعلها كانت تريد أن تحاول ، ولكن الوقت كان قد فات .. أؤكد لك أنها لم تكن تشعر بالارتياح ، وقد رأيت أنها تكاد تذوب من الخجل .

– إنك تنسى المهم ياسبستيان .. الطعم في آخر الخيط ، وهذا الخيط يمسكه الصياد بكل قوة ، وهو لا يهمه السمكة .. مادلين أو أي شخص آخر .. إن الشئ الذي بدأت أفهمه هو أنه واثق من أنه سيأسرنا من جديد بعد أن يرخي لنا الحبل .. نحن نعتقد أننا طليقين ولكننا مع ذلك مازلنا في آخر الخيط .

– أتعني أنهم تبعونا ؟

– كلا .. إن الأمر أشد ذكاء من هذا .

أطبق لوبين عينيه وشدد الضغط على قبضتيه وبذل جهداً كبيراً للتركيز وضح له الآن أن فراره كان متوقعاً وأنه يدخل ضمن خطة ، ولكن أية خطة ؟.. لو أستطيع فقط أن أسترد ذهن الأيام السابقة .. ذلك الذهن السليم لذي يفكر .. لاأرى غير تفيسر وحد وهو تفسير سخيف .. إنه يشتبه في أن مسيو راوول ليس أسمي الحقيقي .. إنه يشك في الحقيقة ولكنه لم يتأكد بعد من إنني أرسين لوبين ، ولهذا يحاول القيام بتجربة كما لو أن في استطاعة أي أمرئ أن يقوم بمثل هذه التجربة معي أنا .. إنه ينتظر أن أفعل شيئاً وأن أقدم له الدليل الذي يريد .. ولكن ماذا ؟ وإذا قدمت له هذا

الدليل فسوف يتصرف نتيجة لذلك .. لديه إذن الوسائل لكي يتغلب على ولكن كيف ؟ .. لقد أصابني الضعف والوهن مع إنني كنت معروفاً بالذكاء والدهاء يجب أن أتحرك وأن أتحرك سريعاً بدلاً من هذا التخبط وهذه البلبلة .

– سبستيان .

– نعم .

–هل لديك مكان يمكن أن تختبئ فيه لأنك قد تتسبب فى إزعاجى فى الوقت الحالى .

– أستطيع أن أذهب إلى جدتى إذا أردت .

– وأين تقيم ؟

– فى أبيرون ، على شاطئ اللوار .. هل تعرفها ؟

— أجل .

– وهل تعتقد إننى سمسار وإننى أعمل فى الخردوات ، وبهذا أستطيع أن أمضى لزيارتها من وقت لآخر دون إخطار سابق كما لو إننى أقوم بدوره وقد اعتدت أن أزورها فى أية لحظة ، وإنه ليكون مدهشاً لوتأتى معى سنكون فى أمان هناك .. ليس حولنا جيران .. الريف والريف فحسب .

– ليس هناك من يعلم من العصابة بأمرها .

– كلا .

وإذ رأى سبستيان أن زميله متردد أردف يقول :

– لن تتسبب فى أى إزعاج فالبيت كبير ، وسنختبئ فيه بينما يبحثون

عنا في باريس .. سأقول لجدتي إنك زميل وأننا في أجازة .. وسوف نهتدي هناك إلي فكرة ما .. وقد نستطيع العمل معاً .

كان الشاب يتكلم في ثقة بحيث تأثر لوبين وقال :

– حسن .. اتفقنا .. اسبقني أنت وسأنضم إليك غداً فما زال أمامي بعض النقاط المهمة لابد لي من استجلائها .

– لا يمكنك أن تخطئ المكان .. إنه آخر بيت في شارع مينتنون وأمامه حوش به شجرة كستناء ضخمة .

– فهمت .. امض .. وشكراً لك .

وربت لوبين بيده على ركبة الشاب وهبط .. ولم تلبث السيارة أن اختفت في الليل .. وعاد لوبين إلى الشانزليزيه .. وفكر في رايموند دي سان فيران ثم في مادلين فيريل وهز كتفيه .

***

٧ المخلب يرد الهجوم

في نحو الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم توجه الأستاذ بيشيرو٧ وحافظته تحت إبطه إلى بيت مسيو سارازا .. كان يبدو مستغرقاً فى أفكاره ولكنه كان يراقب الشارع باهتمام كبير من تحت جفنيه الكثيفتين .. ولم يلبث أن فطن إلى رجلين يتمشيان استدارا بعد حوالي مائة متر مرة واحدة بحيث لم يعد لديه أى شك .. كانا شرطيان مكلفين بالحراسة أمام بيت النائب العام .. وفى طريقهما نظرا إلى الأستاذ نظرة فاحصة واستمرا فى طريقهما وهما يثرثران .. ودخل الأستاذ بيشيرو البيت وحيا البواب ثم دق جرس النائب العام .. وأدخله الخادم ثم أقبل ريمون لوفير مبتسماً بشوشاً وشد على يد الأستاذ فى رفق وقال لوبين يحدث نفسه :

– مهذب جداً بحيث يثير الشك .

– سوف يستقبلك سيادة النائب العام على الفور .

ثم مضى بلوبين إلى مكتب فنسان سارازا وقال :

– الأستاذ بيشيرو .

وانسحب على الفور كما يفعل السكرتير الكتوم .. وصاح النائب العام :

– أدخل تفضل .

قال الأستاذ بيشيرو فى قلق :

– أود أن ألقى سؤالاً قبل كل شئ .. هل اتخذت أى إجراء قبل الأشخاص المذكورة أسماؤهم فى القائمة ؟

– كلا .. كنت أنتظر زيارتك قبل ذلك .

تهالك المحامى المزعوم على مقعد فى ارتياح ظاهر وقال النائب العام :

– أنت سليم ومعافى والحمد لله .. إننى انزعجت كثيراً عليك .. لو أن شيئاً حدث لك لما غفرت لنفسى أبداً .

وجلس خلف المكتب العريض وأبعد الملفات وضم يديه ونظر إلى زائره :

– قل لى كل شئ إذن .

كان وجهه مكفهراً خالياً من أى تعبير فيما عدا التعب والإرهاق .. كانت عيناه هى وحدهما اللتان تنظران فى اتساع وتومضان بالفضول .. وبدأ الأستاذ بيشيرو قصته .. ولما كان لا يستطيع أن يتغلب على طبيعته ، ولما كان طبعه السافر يغلبه أحياناً رغماً عنه فقد راح يلوح بيديه ويغير لهجته .. وكان منظر هذا المحامى الذى يفيض بالحسرة والندم ينم عن شخصية أخرى غير تلك الشخصية التى يتقمصها فد بدا الأمر مضحكاً وغريباً بحيث وقع المستحيل ، فقد ومض شئ فى عين النائب العام وقال فى طرب :

– معذرة .. إن لك طريقة فى سرد الأحداث .. ألم يتملكك الخوف إذن ؟

– أوه .. بلى ولكننى كنت أغلى من الغيظ ، فقد حسبت نفسى ذكياً فإذا بى أقع على رجل شيطان لم يكف عن الاستهزاء بى .

– ولكن كيف تمكنت من الفرار ؟

– أنقذني شاب .. سبستيان جروز ، وهو الولد العاق في عصابة الذئاب هذه فتح لي الباب ذكرى لخدمة سبق أن قدمتها إليه .. سبستيان جروز ، تذكر هذا الإسم جيداً ياسيدي النائب العام ، لأنه يجب العفو عنه عندما تأتي ساعة الحساب .

– وتلك المرأة مادلين فيريل ، ماهو انطباعك عنها ؟

– إنني أتساءل .. لا أظن أنها تحبذ ميول زعيم العصابة أو لعلها بالأحرى مترددة .. إنني مازلت لا أتهمها تماماً ومازلت أرتاب فيها .

– هل يمكن أن ترضخ لإغراء المكسب ؟

– ربما .. هي أو أي شخص آخر .. وبهذه المناسبة ، أعيد لك شيكك .

وأخرج الاستاذ بيشيرو الشيك من حافظته وأعاده للنائب العام فمزقه هذا الأخير وعاد المحامي يقول :

– إنني أتساءل إذا كانت هذه المكافأة كافية .

– إنني ألقيت على نفسي هذا السؤال .. إنها مكافأة كبيرة طبعاً ، ولكن يجب أن نضع نصب أعيننا أن هؤلاء الناس يجمعون ملايينا بما يسرقونه ولابد أن تكون حصة كل منهم كبيرة ، ولهذا سأضاعف المكافأة .. مائتا ألف فرنك هاأنت ترى إنني لا أتردد في إنفاق كل ثروتي للتغلب على هذه العصابة .. ولكن مائتي ألف فرنك مبلغ جسيم يدفع المرء للتفكير .. ألا تظن ذلك ؟ .. مائتا ألف فرنك والعفو التام ، فلا يجب أن ننسى قضية شومينار وبرجون .

– لنأمل ذلك .. أما عن القائمة التي أعطيتك إياها فأرجو تمزيقها طبعاً هذه فرصة جميلة تطير منا .. لايجب أن ننسى الحقيقة ياسيدي النائب

العام .

إننا لا نملك بعد أى عنصر هام .. ظننت أننى أحرزت تقدماً !

– وقد فعلت .

– إن هو إلا أنتصار بسيط ، فلا ريب أن المجرمين هجروا وكرهم الآن واستقروا فى مكان آخر .. ومازالت مادلين فيريل طليقة ، ثم إننا لانملك دليلاً فعلياً ضدها .. لاشئ يبرر القبض عليها .. أما سبستيان فلا أريد أن يزعجه أحد ، فلعله يستطيع مساعدتى فيما بعد .. وإذن .. ماذا يبقى لنا ؟ شكوك يجب أن نتحرى عن إختفاء إمرأة فى الجزائر .. امرأة لا نعرف حتى إسمها .

– سوف يقتضي منا ذلك جهداً طويلاً .

– طبعاً .. ويجب التحرى أيضاً عن الأشخاص الذين يعملون معك .

– هذا عمل قد بدأته فعلاً .

وأخذ النائب العام يلهو لحظة بقاطعة الورق .. وكان يبدو أن أفكاراً أليمة تدور برأسه .. وتجهم وجهه مرة أخرى وهويقول :

– ماذا تقترح ؟ .. كيف يمكننى أن أساعدك ؟ .. هل تريد أن أضع أحد رجال البوليس تحت تصرفك ؟ .. أو أن اكلف بعضهم بحمايتك ؟

صاح الأستاذ بيشيرو :

– كلا ، فإننى أحب أن أتصرف بكل حرية .. إن نيتى فى الوقت الحالى هى أن أنفرد بنفسى بضعة أيام فى الريف ، فإن ذلك يساعدنى على الرؤية فى وضوح .. إن شخصية رئيس عصابة المخلب ماتزال تتهرب منى ، وإن فى ذلك الرجل شيئاً يحيرنى .. إفراط ومغالاه .. بل أقول أن فيه نقصاً ..

كمـا لو أنه يريد أن يعوض فشـلاً سبـق أن منى به بالجـاه والسلطان والرفاهية .

قال النائب العام :

– أوه .. أتكون قد أخذت مـأخذ الجد تلك النظريات التى أبداها ذلك الطبيب النمساوى الذى يتكلمون عنه الآن فى باريس ؟

– إننى لا أعرفه ولا أريد أن أعرفه ، ولكن من عادتى الركون إلى غريزتى وهى تقول لى إننى أواجه غريماً من نوع خاص ، وعندما أدرك منطقة ، وهو منطق يختلف عن منطقى ومنطقك فسأكون قد تقدمت خطوة كبيرة .

– أتمنى ذلك .. ومن ناحيتي سأرسل مذكرة إلي الصحف أعلن فيها للجمهور إننى أرفع المكافأة إلى مائتى ألف فرنك مع عفو تام لأى فرد من أفراد العصابة يكون السابق إلى الاعتراف .. إننى رأيت الرئيس فالنجلاى للمرة الثانية أمس وقد وعدنى بذلك .. هل ترحل الآن فوراً ؟

– تقريباً ، فمازال أمامى موعد هام .

– حسناً .. حالفك التوفيق ياأستاذ بيشيرو .

* * *

فى بداية هذا الأصيل كان هناك حشد من الناس على الرصيف الذى يحيط بحديقة التويلرى .. كانوا يستنشقون النسمات الهادئة لهذا الربيع المتأخر فى استمتاع كبير وقد أرتدت النساء أبهى ثيابهن الصيفية واستبدل الرجال قبعاتهم المستديرة بأخرى من القش .. وهنا وهناك تتألق بزة رسمية وسير العربات وسيارت الأجرة والاتوبيسات المستمر ووقع الأقدام وفى بعض الأحيان فرقعة سوط .. كان كل ذلك يحمل مظهر الأعياد ، وعلى

الرصيف المقابل تعرض الفتارين لعيون المارة آلاف لأصناف التى تسببت فى شهرة باريس فى كل بلاد العالم .

ومع ذلك فقد كان من الممكن رؤية رجل مسن لايبدى أى أهتمام للمحلات التى يتسكع أمامها الفضوليون .. كان يمشى مطرق الرأس ويداه تلهوان خلف ظهره بعصالها مقبض على صورة رأس غراب .. كان يرتدى بذلة سوداء وقد تساقط على ياقته بعض القشور من رأسه ، كمية من الطباشير .. كان يبدو أنه مدرس غارق فى أفكاره ، ويدل على ذلك الشريط البنفسجى الذى يزين ظهره وكذلك نقاط أخرى لها معناها ، ولاسيما تلك العوينات التى تهتز على أنفه وتهدد بالسقوط فى كل لحظة .. وكانت هناك أيضاً شفتاه اللتان تتحركان كما لو كان يحدث نفسه حديثاً جدياً .

ولو أن أحداً دنا منه وانحنى فوق كتفه مسمع عبارات تثير الدهشة .

سوف تأتى .. لابد أن تأتى ، لأنها تعرف إننى أفى دائماً بعهودى ، وأشعر أنها شغوفة بهذه التحديات الجريئة .. إمرأة أخرى غيرها لن تجرؤ على تحدى المخلب ، ومن ناحيتى ، وبعد ماحدث أمس يجب أن اختفى وأن أتوارى .. ذلك لو أننى رجل عادى .. ولكننى لست رجلاً عادياً .. نعم إنها ستأتى لكى تتحقق من أننى لم أخطئ فى ظنى بها .. والحقيقة أن كلا منا أكثر فضولاً من الآخر .. آه ياصديقى لوبين ، إن هذه اللعبة خطرة لأنها قد تكون معقدة أكثر مما تتصور .. لنفرض أن مادلين ردت كل شئ للزعيم .. لنفرض أنها ستأتى إلى هذا الموعد بناء على أمره . لعلنى فى قبضته بواسطتها منذ الآن .. تركنى أهرب لكى يستردنى ثانية حتماً .. إننى سألقى بنفسى إذن فى فم الأسد .

توقف المدرس العجوز لكى يمسح عويناته وانتهز الفرصة لكى يتأمل

نفسه فى فترينة صيدلية فخمة وابتسم :

- إننى أبدو كما لو كنت مدرساً حقاً .. إننى أفلحت فى التنكر .. ولأجل لاشئ .. من أجل حب الفن .. إذا كانت مادلين ضالعة مع الزعيم فهذه هى الوسيلة الوحيدة لكى أرشده إلى ، فهو يقول لنفسه .. إذا كان هذا المسيو راوول هو أرسين لوبين فإنه لن يكتفى بأن يمضى إلى مطعم ومبلمبير ولكنه سيفكر فى إحدى تنكراته التى أشتهر بها، وعلى ذلك أصل إلى المطعم متنكراً فى صورة أستاذ والنتيجة أننى أرسين لوبين وهذا هو الدليل الذى ينتظره .

وثبت العوينات فوق أنفه ثم تابع سيره ومونولوجه .

حسناً أنا أرسين لوبين .. وبعد ؟ .. حسناً .. لاريب أنه ينوى أستخدامى لأغراضه فهو مقتنع بأننى عشقت مادلين ، ويأمل أن يملى على إرادته بفضلها .. ولكن على أى شئ يريد أن يرغمنى ؟ .. كل هذا لا معنى له .. ثم إننى لست عاشقاً لمادلين ، وأستطيع أن أقسم على هذا .

ومرت به فتاتان فانفجرتا ضاحكتين فأردف يقول :

- لم يعد هناك أى أحترام لنا نحن المسنين ، ولكن ليس من السوء أن أبدو مختل العقل ، ولاريب أن زعيم عصابة المخلب يعتقد أننى مخبول .. ألا يعنى منحى الإبرة وكنوزها للحكومة عن طيب خاطر إننى قد أصبت بجنون العظمة وإننى أصبحت الآن مجنوناً حقاً إذ أتحداه .. يبدو لى أن هذا هو التعليل الصحيح فكلما تهيأ له إننى فقدت عقلى كلما أرتكبت أخطاء .. المعركة إذن بيننا نحن الأثنين ياعزيزتى مادلين

كان هناك جمع غفير فى مقهى رمبلبمير واضطر لوبين أن يجتاز الصالة مرتين قبل أن يهتدى إلى مادلين فيريل .. كانت قد أتخذت مظهر سيدة فى

منتصف العمر ترتدى قبل أن يهتدى إلى مادلين فيريل .. كانت قد اتخذت مظهر سيدة فى منتصف العمر ترتدى ثياباً صارمة وتضع فوق رأسها قبعة لها حاشية بسيطة وتغطى عينيها الداكنتين بغلالة رقيقة .. وحياها لوبين بطريقة خرقاء كما لو كان مدرساً حقاً وجلس أمامها مستمتعاً بالدهشة التى عرتها عند رؤيتها له .. وقالت :

– إذن فقد أتيت .

أجاب وهو يتظاهر بغرور مضحك :

– طبعاً .

قالت :

– ولكنك لم تتنصر بعد .

تبادلا النظر فى فضول ، وربما فى شئ من الانفعال .. واستمتع لوبين بهذه الدقيقة التى خيل له أنها حافلة بالشاعرية .. الأفاقة واللص الشريف من منهما سيخدع الآخر، ومن منهما يحب الآخر، بل منهما سيدمر الآخر ؟

وأقبلت جرسونة ووقفت أمامها ، وأراد لوبين أن يطيل هذه اللعبة التى يستمتع بها كل الاستمتاع فقال :

– وحفيدك الظريف .. ألا يزال فى ستانسلاس ؟

ردت مادلين عليه فى حدة :

– ماذا تشرب ؟

قال لوبين يخاطب الجرسونة :

– أوه ، معذرة .. لم أرك ، فأنا قصير النظر .. فنجان شاى باللبن .

وتمتمت مادلين بعد أن أنصرفت الجرسونة :

– كما لو كنت أبدو فى سن الجدة حتى وأنا متنكرة .

م أشأ الإساءة إليك أيتها الصديقة العزيزة .. كم عددهم ؟

عن تتكلم ؟

– حسناً .. عن هؤلاء الذين يرافقونك .. أظن أنك لا تتنقلين إلا برفقة فرسانك .

– إذا استمررت فإنى أنذرك بأننى سأنصرف .

– يؤسفنى ذلك .. إذن فقد أتيت بمفردك ؟ .. هذا شديد الخطر فلو أن مخدومك عرف .

– إننى أمنعك من إستخدام هذه الكلمة .

– حسناً .. إذا كان عشيقك .

خفضت غلالتها وهمت بالنهوض ولكنه أمسكها من معصمها وقال :

– ياإلهى ! .. ماأشد حساسيتك ! .. إذاعرف مع من هذا اللقاء فماذا يقول ؟ .. الأمر بسيط .. يخطر له أنك أردت أن تبرئى نفسك وإن تثبتى لى أنه لادخل لك فى مسألة مرسيليا .

– وهذه هى الحقيقة .

– لماذا لم تخبرينى إذن ؟

– ولكن ألا تدرى أننى فى قبضة يده ..كما يقبض على أغلب الذين معنا؟

– لأن لكم جميعاً ماضياً .. أليس كذلك ؟

– نعم .

وضعت الجرسونة قدحاً وبرادا أمام لوبين .. وقال هذا الأخير في رفق :

– وماضيك يامادلين ؟ أهو ثقيل ؟

– نعم .. ثقيل جداً .. ولديه الدليل ، ويمكنه أن يلقني في السجن عندما يريد .. لو تعلم إلى أى حد هو منظم .. إن لديه ملفات وبطاقات عن الجميع .

– ماذا تستطيعين أن تقولى لى عنه أيضاً ؟

أسرعت تقول :

– لاشئ .

– ومع ذلك فأنا واثق أنه غازلك .

– نعم .. إنه حاول .

سألها لوبين في إصرار :

– لنكن صريحين إذن .. هل أفلح ؟

وأثقل على صدره قلق غريب .. تمنى بكل قواه أن تحتج ولكنها قالت :

– نعم .

سكت لوبين .. أحس فجأة بأنه متعب ومتقزز في غموض .. وشعر بالملل من هذه المعركة المقنعة التى انساق إليها فى غباء .. وعادت تقول :

–كان هو الأقوى .. وهو الأقوى دائماً .. وقد أتيت لكي أقول لك هذا بالذات ، ولكي أقول لك :

– ابتعد عن طريقة فلم يفت الأوان بعد .

وأقصت فنجانها عنها وانحنت فوق المنضدة .. ورأى من خلال الغلالة عينيها تتألقان بالدموع المكبوتة .

– إرحل .. سعيداً .. إلى أبعد مايمكنك ، وإلا فسوف ينتقم ، وسيكون انتقامه رهيباً .. مامن شئ يمكن أن ينقذك .. لو أنني استطعت أمس ماترددت ولكنه يراقبني ويلعب معي لعبة القط والفأر .. إنه عنيف وشديد القسوة .. يعشق تعذيب الناس .

وكتمت زفرة ، وأخذت منديلاً صغيراً من حقيبتها ورفعته إلى عينيها وتساءل لوبين :

– أهي مخلصة أم تراها تمثل علي؟ .. إذا كانت تمثل فإنها تجيد التمثيل كل الإجادة .. وقال :

– وإذا أصغيت إليك ، وهربت كما تنصحينني فماذا يكون رأيك في ؟ ستقولين إنني معدوم الكرامة .. جبان .. بلى يامادلين .. من أجلك سأبقى دائماً ذلك الشخص الذى جرؤ وقاوم ، ولعلك مازلت تأملين دون أن تعترفي بذلك .. أن أبقى وأن أستمر .. ومن يدرى ؟ .. وأن أفوز .

وفكر قليلاً ثم أردف :

– لماذا ترتجفين من أجلي ؟ .. إن المرء لا يرتجف إلا من أجل من يحب .

– بالذات .

رفع عويناته التي تضايقة ونظر في عينيها وقال :

أصحيح ماسمعت ؟

نهضت مادلين فيريل وغيرت لهجتها قائلة :

– أشكرك من أجل الشاى كلا .. أرجوك أن تبقى .

احتجزها من يدها وقال :

– ليس هذا وداعاً ، أليس كذلك ؟ سوف نلتقى .. تخلصت منه وحيته بابتسامة ثم ابتعدت .. وقال لوبين يحدث نفسه :

– آه هل أنا فى منام ؟ أنا الذى أعترف وأبوح بحبى فى العادة .. إن لهجتها وانفعالها وكل شئ يدل على صدقها وإخلاصها .. وكنت أصغى إليها فاغر الفم خافق الفؤاد لأننى كنت مشدوهاً مذهولاً .. آه هذه هى المرة الأولى التى يلجم الإنفعال لسانى .. حسناً إنها تحبنى ولم يكن هذا تمثيلاً أبداً .. فإننى خبير بمثل هذه المواقف وطلب كأساً من الشراب .

كان شديد التأثر ، شديد الاضطراب والغيظ .. وأحس بسرور لم يلبث أن لام نفسه عليه كما لو أنه أقدم على عمل خبيث .. وجاءته الجرسونة بالكأس المطلوب فجرع مافيه مرة واحدة تحت عينيها المذهولتين وقال بلهجة أبوية :

– لا تراعى يافتاتى .. إننى احتفل بنبأ عظيم .. واحتفظى بالباقى .

وخرج .. ونظر إلى السماء الزرقاء وأحس بأنه سعيد جداً .. وحرك العصا فوق رأسه وهو يقول :

– والآن إلى ابيرنون .. إننى قادم ياسبستيان ، فأعد العشاء .

كانت السيارة تنساب فى خفة وسرعة ٦٠ كيلومترا فى الساعة ، ولوبين يستعيد فى ذهنه الأحداث التى مرت به وهو يفحص الطريق والانحناءات والمنعطفات التى قد تظهرمنها فجأة عربة يد .. كان قد استرد جأشه بعد فترة وجيزة من التحمس وراحت الأسئلة تتتابع فى ذهنه .. لم تكن مادلين

فيريل بامرأة تتساق وراء العاطفة .. لماذا حثته إذن على الفرار وعلى الابتعاد عن ميدان المعركة .. وإذا كانت قد فعلت ذلك بايعاز ؟ .. وإذا كان الزعيم قد استخدمها لابعاده لكى يطلق يديه فى مكان آخر ؟ .. لم يستطع لوبين إقصاء فكرة أن غريمه كان على علم بذلك اللقاء فى مطعم رمبلمبير وأنه دبر برنامج اللقاء مسبقاً .. سمع فى رأسه رنين الإنذار الغامض والذى طالما أنذره بالأخطار التى كان المنطق البسيط يكذبها .. وقد أثبتت له التجربة دائماً إنه مخطئ فى ظنونه .. ولهذا كان يثقل بقدمه على دواسة البنزين كلما اقترب من أبيرنون وتصاعد إلى قلبه خوف كان لايزال مبهماً .. لقد قال سبستيان إن مامن أحد يعرف المكان ، ولكن ما أراده ؟ .. لعلهم تبعوه وعرفوا البيت منذ وقت طويل .. بيت منعزل يطل على الريف .

وضاعف لوبين من سرعة السيارة .. وفكر إنهم يستميلوننى من ناحية ويخدعوننى بكلمات معسولة ويهتمون بسبستيان من ناحية أخرى ماكان ينبغى أن أتركه وحده أبداً بعد الهزيمة التى ألحقها بالمخلب لعلى مخطئ بقلقى هذا ، ولكن لو أن شيئاً قد وقع له فلن أغفر لنفسى ذلك أبداً .

وأبطأ قليلاً فى الطريق الطويل المؤدى إلى ابيرنون .. ولم تلبث أن لاحت القرية ورأى بعض البيوت المتباعدة والتى تفصل بين كل منهما بساتين ومزارع صغيرة ترعى فيها بعض لأغنام وأبصر أخيراً شجرة الكستناء الضخمة التى تخفى جزءاً من مزرعة جدرانها مدهونة بالجير فداس على الفرامل وانعطف نحو الفناء وأوقف المحرك ولم يتحرك شئ فى البيت وصاح :

– هالو .. هالوه هاأنذا قد أتيت .

كان كل شئ هادئاً .. هادئاً جداً .. الدجاج يلتقط الحب فى هدوء فى

أرجاء الحوش والغسيل يجف تحت الشمس .. وطرق لوبين الباب بقبضته وهو يصيح :

- سبستيان .. سبستيان .

وإذ لم يسمع رداً أدار الأكرة ، وفتح الباب وتقدم بضع خطوات فى الدهليز حيث يتلألأ رقاص ساعة كبيرة .. وتوقف مكانه فجأة ، فقد رأى جسد امرأة ممداً بجوار المائدة الكبيرة التى مازالت أطباق الطعام مصفوفة فوقها .. جدة سبستيان .. كانت موثقة اليدين والقدمين ومكممة الفم .. وكانت الكمامة مشدودة جداً بحيث اختنقت وماتت ، ولم يخطر لهم هذه المرة أن يضعوا بطاقة المخلب فوق جثتها فإن المسكينة لم تكن غير امرأة عجوز لا شأن لها .

عبر لوبين الغرفة ودلف إلى غرفة أخرى مجاورة تنبعث منها رائحة شمع كان فوق الفراش صليب معلق لصق الحائط وبجواره صورة رجل كث الشارب معلقة فوق سترته شرائط البريجادير .. وخرج لوبين وهو لا يفتأ يقول :

- إنها غلطتى .. ما كان يجب أبداً .. إنها غلطتى .. لم أعد أصلح لشئ

لاأحد فى الدور العلوى ، ولا أحد فى مخزن الغلال .. وهبط لوبين ومضى إلى البستان الذى يمتد خلف البيت ورأى على الفور الثغرة فى السور الذى يحيط بالبيت .. قصفت الأغصان وتحطمت ، وفى الناحية الأخرى قد جر حملاً ثقيلاً .. لقد جاء الأشقياء عبر البستان وانصرفوا حاملين جسد سبستيان .. ولا ريب أنهم انقضوا عليه فجأة وصرعوه حريصين على ألايقتلوه ، مدخرينه لعذاب أشد ، فقد خان وأنقذ خائناً والوقع أن هذا أمر فظيع

وكان لوبين قد أكتسب خبرة أثناء حياته الحافلة بالمغامرات فقرأ على الأرض بقية العملية .. بقعة من الزيت في الطريق الممتد خلف السور كشفت له توقف سيارة في ذلك المكان .. ورأى على مسافة أبعد آثار عجلات سيارة أخذ يتأملها حتى بداية الطريق العام .. لقد انصرف الجناة وهكذا .. بينما كان يغازل مادلين فيريل قتلت العصابة المرأة العجوز واختطفت سبستيان .

وعاد أدراجه وهو محزون .. لم يخدعه إحساسه .. لقد خدعه العدو بالاشتراك مع مادلين .. كانت خطته تجرى في عنف وقسوة .. إن يأسر سبستيان وإن يقتله قتلاً بطيئاً لكي يكون عبرة لغيره ولكي يثبت لأعوانه إنه ليس من مصلحة أحدهم أن يفكر في خيانته للحصول على المكافأة المعروضة ، ثم يفرغ من لوبين بعد ذلك .. والكمين قد أعد مسبقاً .. في مكان ما .

وعاد إلى الدهليز ، وجثا بجوار الجثة وأطبق عينيها .. جفف الانفعال حلقة وفكر في فيكتورا ، مربيته العجوز وفي رايموند دى سان فيران .. في الليلة الحمراء التي وضعت حداً لكل أسبابه في التعلق بالحياة .. وهاهو الكابوس يبدأ من جديد .. وتمتم :

- سأنقذ سبستيان .. إنني اتبناه .. إنني أعدك بذلك أيتها الجدة .

ونهض .. وبقى جامداً مكانه لحظة .. لم يسبق أن وجد نفسه في مثل هذا الموقف الميئوس منه .. مهدد من كل ناحية .. وغريم لا وجه له .. لم يكن يملك أى عنصر يمكن أن يهديه إلى الطريق الصحيح .. أينقل القضية إلى البوليس ويفوض أمره لجانيمار ؟ .. أبداً .. إنها مسألة كرامة .. ثم إنه لايستطيع أن يفعل ذلك دون استشارة النائب العام .. ولم يكن يشعر

بارتياح للاعتراف بفشله الجديد .. كلا .. يجب أن تندفع منه هو الشرارة التى ينبثق منها الضوء .. وأغلق الباب فى عناية .

وعاد إلى سيارته .. لاداعى للانفعال والطنطنة كما تطنطن الذبابة فى كأس .. وتذكر الحكمة التى تقول :

– تعجل ولكن على مهل .

وقال وهو ينطلق :

– تجلد ياسبستيان .. تجلد أربعاً وعشرين ساعة فحسب .. لا أطلب منك أكثر من أربع وعشرين ساعة ، فإننى لا أرى الآن فى وضوح .. أنا الآخر أستطيع أن أصاب بالضعف ، ولكنه ضعف سوف يزول وأقسم على ذلك .

وتوقف مع هبوط الليل أمام بيته .. وبعد ربع ساعة كان مستلقياً فوق فراشه ويداه معقودتان خلف رأسه ، واستغرق فى تفكير عميق كان يحاول أن يجمع قطع اللغز ويضمها القطعة بجوار القطعة .. لم يعرف أبداً أين يضع مادلين فيريل ولكنه بدأ يقتنع أن الفرصة الوحيدة للنجاح هى ريمون لوفير .

***

٨ الخائـــن

تقدم رجل فى الثلاثين من عمره ، يرتدى ثياباً سمراء وله هيئة تاجر بسيط ، يبدو من أهالى أوفرن بسبب قبعته المستديرة وشاربه المفتول ، إلى مسكن النائب العام .. وقبل أن يضغط على الجرس مسح قدميه فى الممسحة فى عناية كبيرة ، ولم يكن ذلك حباً فى النظافة وإنما بسبب تردده كان يبدو مضطرباً .. وأوشك أن يعود أدراجه .. وأخيراً وبعد أن ألقى نظرة فى الدهليز ، من فوق درابزون السلم ، ضغط على الزر .. وقال للخادم الذى فتح له :

– أريد مقابلة مسيو سارازا .

– هل أنت على موعد معه ؟ .. إن الوقت متأخر جداً .

– إننى قادم بخصوص أمر خاص وعاجل .

– هل يستطيع السيد السكرتير أن يلقاك ؟

– كلا .. أريد أن أتحدث إلى السيد النائب العام .

وظهر ريمون لوفير خلف الخادم وقال :

– ماالخبر ؟

أجابه الرجل وهو يزداد ارتباكاً من لحظة لأخرى :

- أتيت لمقابلة السيد النائب العام .

قال لوفير :

- إدخل .. أنا السكرتير الخاص لمسيو سارازا .. وهو لايخفى عنى شيئاً لك أن تطلعنى على سبب زيارتك دون خوف

- ذلك إننى .

كان بادياً أن الرجل يرتاب ، وقال وهو يمد يده نحو أكرة الباب :

- أفضل أن أعود .. ولكننى لا أدرى متى ؟

قال لوفير ببساطة :

- حسن .. انتظرنى هنا .. سأبلغ سيارة النائب العام ماأسمك ؟

- ماكولان .. رينييه ماكولان .

وإذ بقى الرجل وحده ألقى نظرة فاحصة إلى البهو ثم تقدم حتى عتبة الصالون وردد بصره بين المفروشات واللوحات وبدا عليه الاهتمام ، ولكنه لم يلبث أن عاد إلى مكانه بجوار باب البهو عندما سمع خطوات السكرتير :

- سوف يمنحك مسيو سارازا خمس دقائق .. تفضل من هنا .

ورافق لوفير ماكولان حتى غرفة النائب العام ، وقال هذا الأخير :

- أجلس يامسيو ماكولان .. أمامى بعض الأوراق سأوقعها ثم أتفرغ لك .

جلس ماكولان على حافة مقعد كبير وهو متردد .. ودار بعينيه فى أرجاء الغرفة .. وتملكه الاضطراب عندما رأى صورة مدام سارازا .. وألقى النائب العام القلم من يده وقال :

- حسناً إننى مصغ إليك .

لم يعرف ماكولان من أين يبدأ ، فشجعه النائب العام قائلاً :

- تكلم .

- سمعت إنك ..

- آه .. هى المكافأة التى تهمك إذن ؟ .. هل تعرف شيئاً

- نعم .. هى المكافأة .. وكذلك الوعد الآخر .

أمسك النائب العام قاطعه الورق لكى يخفى ارتعاش يديه وقال :

- هل أنت من أفراد العصابة ؟

- نعم .

- إن الوعد قائم ، وإذا كانت معلوماتك مفيدة فلن نقدمك لمحاكمة ، وسنمنحك المكافأة الموعودة .

قال ماكولان :

- يجب أن أقول لك .. لم أكن معهم عندما اختطفوا .

وأشار باصبعه إلى اللوحة التى خلف النائب العام .. وقال هذا الأخير .

- ليكن .. أنت برئ .. كنت واثقاً من ذلك

لم يفطن ماكولان إلى سخرية النائب العام ، وإزداد ضيقه وراح يعد كلماته للإعتراف الذى سيدلى به :

- إننى أقوم فى العصابة بمهنة سائق ، وبناء على ذلك فأنا أعلم ولا أعلم فاليوم مثلاً جاءوا بشاب من العصابة يدعى سبستيان جروز .. يقال إنه خان

وكان قد لجأ إلى ايبرنون ، لدى امرأة عجوز .. وقد أوقفت السيارة فى طريق جانبى خلف البيت وانتظرت .. ولاأعرف ماحدث بالتدقيق ولكن زملائى عادوا معهم سبستيان مغمى عليه ومضوا به إلى مكان بعيد هادئ هل تسمح لى سأوضح لك بالرسم .

واسترد الرجل بعض جأشه ونهض ، وأخذ دفتراً وقلماً وراح يسطر بضعة خطوط وعلامات :

– هنا مانت لاجولى .. وهذا هو الطريق المؤدى إلى فيتوى .. معذرة فإننى لا أجيد الرسم .. وقبل قرية سان مارتن لاجارين يوجد طريق يتشعبب إلى اليمين فاتبعه وامض بمحازاه الغابة حتى تصل إلى كوخ قديم للصيد .. لا يمكن أن تخطئه فليس هناك غيره فى المكان وهو يكاد ينهار .. وستجد خلفه طرقة تفضى بعد ثلاثمائة أو أربعمائة متر إلى سور بيت كبير .. أشبه بقصر .. لا أحد يمر من هناك أبداً .

– أهو مقر المجرمين ؟

– نعم .. وهناك يجب أن يجتمعوا بعد الساعة العاشرة من مساء غد .. وجلس ماكولان وقد تخفف من حمل ثقيل .

– أرأيت أيها الزعيم .. عفواً .. ياسيدى النائب العام .. إننى ربحت المكافأة بجدارة .. وأظن إننى أستطيع أن أنودك بتفاصيل أخرى فقد سجن سبستيان فى العيادة ونحن نطلق هذا الكلمة على غرفة خاصة فى الطابق الأرضى ، بين المكتبة والمطبخ وهى غرفة عمليات إذا ما أصيب أحدنا بجرح .. إن الزعيم يفكر دائماً فى كل شئ .. وهل تعرف لماذا سجنوه هناك ؟

قال النائب العام وقد تجهم وجهه لفرط تقززه :

– أوه .. أظن إنهم يريدون تعذيبه لكى يكون عبرة لغيره .

– هو ذلك ، وقد طفح بى الكيل .. صحيح إننى لست ملاكا ، ولكننى مع ذلك لست وحشاً .. وفى نيتى أن أستعين بالمكافأة وأهرب إلى سويسرا وأشتغل هناك بالتجارة .. وهناك سأكون فى أمان .

– هل يمكنك أن تزودنى برسم للبيت أيضاً ؟

– هذا أمر سهل .. بعد أن تجتاز البستان ، وهو كبير ، تجد الباب العمومى وعلى اليسار باب الخدم وفى الخلف باب الخدم .. وفى الطابق الأرضى غرفة طعام وصالون وبعدهما غرفة المكتبة ثم العيادة .. ولكن كل هذا .. إن المكان فخم والمفروشات فاخرة ويبدو كأنه متحف .. وأراهن أن هناك غرفة للتدخين وأخرى للبلياردو أما الطابق الأول فلا أدرى كم غرفة به .

– والخدم ؟

– لا أعرف كذلك ، فإننى لم ألتق بأحد .. إن الذى تولى قيادتنا كان معه مفتاح الباب الحديدى ومفتاح البيت .. وقد مضى بنا إلى العيادة رأساً .. بعد ذلك قدم لنا الشراب فى المطبخ .. هذا كل شئ .. لقد أفرغت لك مافى جعبتى ، وإذا امكنك أن تعطينى الشيك .

قاطعه النائب العام قائلاً :

– إننى عند كلمتى .. سأسلمك الشيك بمجرد أن أتحقق من صحة أقوالك

– هناك شئ آخر .

– ماهو ؟

– إنني أفكر فى حياتى ، فهى منذ الآن لاتساوى شيئاً .

– ستكون فى حماية البوليس .. أهذا هو ماتريد ؟

– تماماً .

– سيلازمك بعض رجال البوليس أينما تذهب .

– وهل سيتم هذا عند خروجى من هنا ؟

– نعم .. أصغ إلي جيداً .. ستخرج من سلم الخدم وهو يفضى إلى شارع مونسو ، وستمضى منه إلى شارع كورسيل ومنه حتى بوليفار هو كان .. وقد اتخذت الإجراءات اللازمة ، ويمكننى أن أؤكد لك ذلك .. لن تتعرض لأى شئ حتى تصل إلى شارع هو كان ، وهناك مكتبة على اليسار ، وستجد بعد خطوتين منها سيارة سوداء واقفة .. سيارة من طراز دى ديون .. هل يمكنك معرفتها ؟

– أوه طبعاً .

– سوف تستقلها وستجد فيها رجلين من رجال البوليس فى انتظارك ، وهما على علم ،فقد أصدرت أوامرى بذلك منذ أن أعلنا عن المكافأة .. وهى هناك فى الانتظار فقد كنت أتوقع زيارة أحد أفراد عصابة المخلب .

– وبعد ذلك ؟

– سيذهبان بك إلى إدارة الأمن حيث تجد غرفة مريحة وأحد الحراس .. وإذا سار كل شئ على مايرام فسوف تتسلم المكافأة .. .. ربما بعد غد .

وضغط النائب العام على جرس فظهر الخادم العجوز على الفور وقال له فى صوت جاف :

– شيع السيد .

ثم لوح بأصبعه لماكولان الذى لم يصدق ماحدث ، وهدده قائلاً :

وانصحك إن لا أجدك فى طريقى بعد ذلك .. والآن أغرب عن وجههى .

أسرع ماكولان بالانصراف .. وعندما ألفى نفسه فى شارع مونسو ردد البصر حوله فى انزعاج .. ولكن الشارع كان مقفراً وهادئاً لاينم عن أى خطر .. ومع ذلك فقد أسرع إلى بوليفار هو كان فى خطى سريعة .. ورأى السيارة .. أهى دى ريون حقاً .. فرغم تأكيده للنائب العام لم يكن يفهم شيئاً فى السيارات ولكن كان هناك رجل أمام عجلة القيادة ، يدخن غليونه فى هدوء ورجل آخر يختفى نصف جسمه تقريباً .. خلف جريدة يطالعها .. واقترب ماكولان ودق على الزجاج من ناحية السائق .. وفتح له هذا الأخير الباب وهو يقول :

– من أنت ؟

– إننى قادم .. من طرف النائب العام .

تذمر الآخر قائلاً :

– إنك ابطأت .. أصعد .

وكان هنام مفتش ثالث فى المقعد الخلفى أفسح له المكان وطلب منه والسيارة تنطلق أن يباعد مابين ذراعيه .. وتحسس جيوبه سريعاً كخبير ثم قال يخاطب الذى يقرأ الجريدة :

– ليس معه سلاح .. ولأول مرة أحس ماكولان ، منذ وقت طويل بأمان تام .. انتهت حياة المغامرات والهجوم والسطو والخوف الدائم من الوقوع فى قبضة رجال البوليس .. أصبح من البورجوازيين الآمنين الآن .. وأصبح غنياً .

وهبطت السيارة شارع هو كان وانعطفت إلى الشارع لافاييت فقال فى مرح :

- هذا طريق الطلبة .

ولم ينطق ملائه بكلمة .. ولم تلبث السيارة أن تجاوزت إدارة الأمن وراحت تبتعد عنها أكثر فأكثر ، فقال :

- ألن نذهب إلى إدارة الأمن ؟ .. ومع ذلك فقد أكد النائب العام .

- إن نائبك العام لايعرف شيئاً .

اصفر لون ماكولام وتمتم :

- من أنتم ؟

أجابه جاره متجهماً :

- أصدقاء .

أمسك ماكولان باكرة الباب ثم تسمر مكانه فإن الرجل الجالس بجوار السائق تحول إليه مصوباً مسدسه نحوه وقال :

- لاداعى للحماقة .

انهار ماكولان .. أن يكون على مقربة من السلام والأمان ثم ..

- هذه غلطة .. أؤكد لكم أنها غلطة .

- سوف تفسر ذلك للزعيم .

- أنتم ؟ .. هل أنتم .. ولكننى لم أركم قبل ذلك أبداً .

- هذا دليل على إنك لاتعرف الجميع .

جن جنون ماكولان .. ونظر إلى الشارع الذى يتلألأ بكل أنوار المساء .. كان السلام هنا .. قريباً منه .. وقال :

– اسمعوا .. هناك وسيلة للتفاهم معاً .. لنقسم المكافأة .. خمسون ألف فرنك لكن منا .. بل إننى أستطيع أن أقنع بعشرين ألفاً .

لزم الأشقياء الثلاثة الصمت ، فعاد ماكولان يقول فى يأس :

هل تريدون المكافأة كلها ؟ .. سأعطيكم إياها بمجرد أن .

– ماذا قلت لذلك المهرج بالذات ؟

– لا شئ .. أشياء لاأهمية لها .

– مثال ؟

– حسناً ذكرت له عنوان مقرنا الأخير .. أقبية بيرليفور .. فقد أصبحت غير ذات فائدة لنا .

– كذاب .

وأشار الرجل إلى السائق الذى داس على الفرامل فجأة .. وبوغت ماكولان واندفعت رأسه إلى الامام واصطدمت بقوة بظهر المقعد الذى أمامه وأحس بألم حاد على أثر حقنة فى ذراعه .. وراح يقاوم الخدر الذى يتصاعد إلى قلبه .. سوف ينام .. وسيمضون به إلى العيادة .. العيادة وتهاوت رأسه فوق كتفه .

* * *

لم يستغرق أرسين لوبين تأملاته كثيراً ، فقد كان العدو يتوقع المقاومة بلا ريب بل أنه كان يتمناها .. ولكنه كان يتوقعها من ناحية مادلين فيريل .. كان الزعيم يعرف نقاط الضعف فى مادلين ، ولا ريب أنه اتخذ حيطته ، ولا

ريب أنها تخضع لرقابة دائمة ، وإذا هو وجه أبحاثه إليها فمعنى ذلك أنه يلقي بنفسه في فم الأسد للمرة الثانية .. يتبقى رجال فنسان سارازا .. إذا كان هذا الأخير لم يكن من الحماقة بحيث قدم استقالته فمازال في مقدوره أن يحمل رجال البوليس على أستخدام كل امكانياتهم من أجل الوصول إلي نتيجة سريعة .

نهض لوبين دفعة واحدة وراح يتنكر في هيئة الأستاذ بيشيرو ، وقال وهو يلصق عارضيه :

– إن خير شئ هو أن أضع نفسي مكانه وأن أغدو أنا نفسي النائب العام ، وياله من أمل لو أن البوليس تحت تصرفي .. لايجب أن أكون ماكن النائب العام وإنما مكان رئيس إدارة الأمن .. آه .. آه .. ولم لا – سألقي القبض على نفسي عندئذ .. أرسين لوبين باسم القانون ولكن دعك من هذا الهذر أيها المأفون .. سوف تسرع الآن إلى النائب العام وتقنعه بأن يسترد استقالته لأنه سيكون ذا فائدة أكثر لك وهو نائب عام .. وفي انتظار أن تحل محله كن سكرتيراً ثالثاً له .

وفحص نفسه جيداً ، ورأى أن يحدودب قليلاً .. أصبح الاستاذ بيشيرو من جديد .. وبعد خمس دقائق كان يهم بالهبوط من سيارته أمام بيت النائب العام عندما رأى ريمون لوفير يخرج .. ووقع نور الكشاف الأمامي عليه وأضاءه تماماً فبدا شديد القلق والانفعال .. وسار بضع خطوات ثم وقف على حافة الأفريز وردد البصر حوله فاحصاً .. كان يبدو أنه يبحث عن سيارة أجرة ، وإذ خاب مسعاه أسرع نحو البوليفار.. وأستيقظ فضول لوبين فعدل عن زيارته ورأى أن يتبع لوفير .. مامعنى هذا التردد الظاهر ؟ وأين يمكن أني يمضي بكل هذه السرعة ؟

ولم يجد فى البوليفار أية سيارة ، فقد كان الوقت وقت ازدحام المتاجر بالعملاء بحيث أن أية سيارة أجرة كان يتهافت عليها الكثيرون .. ولم ينتظر لوفير .. كان هناك ترام يسير فى بطء فوثب فوق سلمه وانطلق لوبين خلفه ، على مسافة معقولة .. وكان البوليفار مزدحماً جداً فاضطر الترام أن يسير ببطء ، وإزداد لوبين اقتراباً منه .. أين ستقوده المطاردة بحق الشيطان .. وتجاوز الترام ميدان بلانش .. وتوقف بعد ميدان بيجال بسبب الزحام .. إذا هبط لوفير ومشى سيراً على قدميه فإن لوبين سيجازف بأن يفقده بين المارة .. وانحنى فوق الباب عبثا فإنه لم ير غير ظهور أناس يسرعون وينتصبون على أطراف أقدامهم .. وراح السائق يطلق صفارته دون جدوى وأخيراً أنطلق الترام ، وتبعه لوبين فى بطء .. وكان أحد الشرطة قد أوقف المارة فى منتصف الطريق فقد اعترضته عربة ثقيلة محملة بالطوب وقع جوادها ولم يستطع الوقوف رغم صياح السائق وصراخه ولسعات السوط كان كلما أراد الوقوف يعود فيتزحلق على قائمتيه الأماميتين ويرفع رأسه بعينين مجنونتين وتنتزع حوافره شرارات من البلاط .. وكان لوبين يكره مثل هذه المناظر فإن ألام الحيوانات تحز فى نفسه ، ولم يكن لديه وقتاً لكى يترفق ويشفق .. فهل لايزال لوفير موجوداً فى الترام ؟

هم لوبين بأن يتجاوز جموع الفضوليين من ناحية ولكنه لم يلبث أن تنهد فى أرتياح ، فقد رأى السكرتير جالساً بجوار إحدى النوافذ مطبق العينين وقد استغرقته الأفكار .. بعثت هذه الرحلة قلق لوبين وزادته حيرة على حيرته .. وبلغ الترام بوليفار لا شابل أخيراً ، وكان الشارع غارقاً فى الظلام والتقى لوبين بالرجل المكلف بإنارة المصابيح الغازية وهو يحمل شعلة فى يده وينتقل بها من مصباح إلى آخر .

واجتاز الترام جسر سان مارتن ثم أنعطف إلى شارع آخر وانتهز لوفير ابطاء الترام عندئذ فوثب منه مسرعاً ولحق باوتوبيس منطلق إى الشارع ألمانيا .. وتبعه لوبين على الفور وهو يتصور بصعوبة سكرتير فنسان سارازا الشديد الأناقة يقيم فى أحد الأحياء الفقيرة التى يمر بها الأوتوبيس .. أين يذهب إذن ؟ .. ويمن سيلتقى ؟ .. أثار الرجل شبهته أكثر فأكثر

وكان المزلقان مغلقاً عند بداية شارع أورك .. وصلصل جرس فى مكان مافى جوف الليل .. إذا صمم لوفير إن يجتاز القضبان فلابد أن يتخلى لوبين عن سيارته لكى يتبعه .. ولكن مخاوفه لم تطل لأن القطار أقبل ومر فى بطء مثيراً سحابة من الدخان .. وابتعدت العربة الأخيرة وأنوارها الحمراء لا تزال تنعكس فوق القبضان .. وكظم لوبين غيظه وراح يدق بأصابعه فى عصبية على عجلة القيادة .. وانفتح المزلقان أخيراً وانطلق الأوتوبيس .. وتجاوز سوق الدواب .. لاشك أن لوفير سيهبط عند باب بنتان.

ولكن الأوتوبيس بلغ الجمرك ولم يظهر لوفير ، فمامعنى هذا ؟.. هل يمضى إلى أبعد من ذلك ؟ .. وهل فطن إلى أن هناك من يتبعه ؟ .. ولم يتمكن لوبين من التفكير أكثر من هذا لأن لوفير هبط فجأة وسار نحو الاستحكامات .. ولحسن الحظ كانت حركة السيارات لاتزال شديدة فلم تثر سيارة لوبين شبهات السكرتير ، وكان يمشى مسرعاً دون أن يلتفت .. لعله يبغى إجتياز هذا المكان الكئيب بأسرع مايمكنه فهو مكان كله انحدارات ومطبات وخنادق فى حين تمتد فى الناحية الأخرى حدائق كبيرة تقع فيها أكواخ كثيرة مبنية من الخشب .. وكان الحى يبدأ من تلك الحدائق ، ويدا كبقعة مهجورة محفوفة بالاخطار وكان من الحرص أن يتخلى عن سيارته

لأن المحرك سيثير الانتباه وسط هذا الصمت المطبق ، فأوقف السيارة فى أول شارع مشبوه أختفى لوفير فيه .. ولكنه كان لا يزال يسمع وقع قدميه فجرى بكل سرعته لكى يلحق به

كانت أسماء صافية وأضواء باريس تنشر نورها بحيث يستطيع المرء أن يجد طريقة دون صعوبة .. واختفى لوفير فجأة ويلغ لوبين باب بيت إلى حوش كبير على صورة نفق ، مملوء بالظلال .. ولاريب أن المبنى كان يستخدم كمحطة ترحيل ، وكان كل شئ مقفراً وصامتاً .. ومشى لوبين بجوار الجدران وهو يرهف أذنيه .. كانت يده تلتقى هنا وهناك بحلقات مثبتة كانوا يربطون فيها الخيول فيما سبق .. ويلغ المبنى الرئيسى ورأى باباً ثانياً مقابلاً للباب الأول ولف منه إلى شارع ضيق به نور خافت ينبعث من مصباح غازى بعيد .

أحس بأنه ضائع تماماً فى حى لم يأت إليه إلا فيما ندر ، ولكنه كان واثقاً الآن أنه فى اطريق الصحيح ، فإن لوفير إذا كان قد حرص كل هذا الحرص على إخفاء أثره فذلك دليل واضح على أنه ينتمى إلى العصابة .. كان السكرتير يسبقه بمسافة كبيرة ، ولكن لوبين كان يراه دائماً كخيال صغير فى آخر الشارع .. وأسرع لوبين خلفه .. هذه النزهة الليلية لايجب أن تستمر طويلاً ، فلابد أن سبستيان مسجون فى هذا المكان ولاريب أن لوفير ماض إليه لأستجوابه الاستجواب الأخير .. وهكذا أحس لوبين بأن الحظ لم يتخل عنه .. ولو أنه كان مسلحاً لأحس باطمئنان أكثر ، ولكن لسوء الحظ رأى أنه لا يجب أن يربك نفسه بمسدس لكى يمضى للحديث مع فنسان سارازا

وكان يقع فى آخر الشارع بيت قديم يكاد ينهار بحيث أنهم دعموه

بأعمدة من الخشب .. ولم يكن هناك بعد هذا البيت غير طرقة قذرة تمتد بين حدائق وأراض بور .. ولم يكن هناك شك في أن لوفير دخل ذلك البيت .. وفحص لوبين المكان في حذر .. كان هناك سور حديدى أمام البيت في آخره بوابة مفتوحة على أحد مصراعيها لافتة يكاد الزمن يمحو كلماتها استطاع لوبين أن يقرأها :

مخازن شانفلورى للفحم

واجتاز البوابة .. ورأى على يساره عندئذ خطيرة اقترب منها لكى يبقى في الظل .. ورأى في الحظيرة عربة يد وسيارة نقل وبضع عجلات قديمة بجوار الحائط ، وبعد الحظيرة مخزن فارغ ، وبدا في آخر الحوش مبنى من دور واحد .. لم يكن هناك شك في أن المبنى كان اسطبلا فيما سبق .. واستمر لوبين في فحصه واجتاز البقعة التي تفصله عن ذلك المبنى في بضع وثبات وأوشك أن يصرخ عندما بلغه .

كانت هناك سيارة واقفة عرف طرازها على الفور فقد كانت من طراز دى ديون .. لم يخطئ إذن ، وقد اكتشف الآن أحد أوكار المخلب .. إن سبستيان سجين هنا .. ودار بالعربة واكتشف قبساً من النور في الزاوية العليا من الباب كان من المستحيل أن يلصق أذنه في فتحتها لأنها كانت مرتفعة جداً .. وتقدم خطوة أخرى .. كانت تفوح بالمكان رائحة التبن والروث .. كان الأفتراض صحيحاً ، وكان المكان اسطبلا قديماً .. وإذن فما حسبه لوبين طابقاً علويا لم يكن غير مخزن للتبن فكيف يصل إليه ؟ ولكن المخزن بحاجة إلى سلم للصعود إليه ولابد أن يكون هناك سلم متنقل .

واستمر في بحثه حتى بلغ آخر المبنى ، وكما حدث ذلك معه كثيراً خلال مغامراته وضع يده أخيراً على الشئ الذى يحتاج إليه بالذات .. كان السلم

هناك . مطروحاً فوق الأرض ، بجوار الحائط فأخذه من غير أن يضيع لحظة واحدة وثبته تحت نافذة تمكن من رؤيتها في الظلام الخافت ، وصعد في حذر . ولم تكن النافذة مغلقة كما توقع ، ووثب إلى الداخل .. وأجفل عندئذ ولكنه لم يبث أن أطمأن فقد أفزع بعض الفئران ، وأشعل عوداً من الثقاب رأى على شعلته المتراقصة أرضاً يغطيها التبن وعيونا حمراء تحملق فيه من بعيد . وتقدم وهو يقدم رجلاً ويؤخرا أخرى كما لو كان يسير فوق طبقة من الماء المتجمد .. ولكن الألواح كانت متينة ولم يصدر منها أى صرير .. وكانت الفئران تثير ضجة أكثر منه .

كان المخزن يشغل كل الجزء العلوى من المبنى .. وكان من السهل عليه إذن أن يصل إلى المكان الذى يدور الاجتماع تحته .. وكان كلما تقدم كلما سمع بعض الأصوات في وضوح .. وأشعل عوداً آخر ورأى حدود باب قلاب فانحنى .. كان قفل الباب قد انتزع من مكانه منذ وقت طويل وبقيت الثقوب وكان في مقدوره أن يرى منها مايدور تحته .. وتمدد لوبين في حذر كبير ... ورأى

كانت تحته جماعة من أربعة رجال لم يستطع تمييزهم جيداً لأن بصره كان مستقيماً فلم ير غير أعلا رؤوسهم وأرجلهم .. ولكنه عرف بينهم لوفيسر بسهولة ، ورأى على الأرض رجلاً قيدت يداه خلف ظهره وبجواره مصباح .. ولم يسبق للوبين أن أرى وجهه قبل ذلك

لكن أين سبستيان إذن ؟

هل قتلوه ؟ حاول عبثاً توسيع مجال رؤيته .. زاوية ميتة أخفت عنه جزءاً من الاسطبل ، ومع ذلك فلابد أن هناك في تلك الناحية مصباح آخر لأن البلاط كان بانحراف .. تفصد العرق من وجهه .. كيف يتدخل ؟ .. هل يرفع

الباب فى عنف ويقع بينهم .. ولكنهم أربعة .. ستلعب المفاجأة دورها طبعاً وربما يتخلص من أثنين ولكن الرجلين الآخرين سيتمكنان من استعمال مسدسيهما .. من الأوفق أن ينتظر .

– ركل أحد الرجال الرجل المقيد وقال له :

– حسناً ياماكاولان .. ألا تريد أن تتكلم ؟

وتحول إلى السكرتير واستطرد :

– يسرنى أنك أتيت يامسيو ريمون مما يوسف له أنك لم تسمع ماذا قال سارازا .

قال لوفير :

– ماكان هذا ليغير شيئاً فقد وقع الضرر .

هل تظن أنه تكلم عن اجتماع مساء الغد .

– لا أدرى .. لابد أن يفضى لنا بما قال .

قال أحد الرجال الأخرين :

– إننا لانعرف الكثير .. صدرت إلينا التعليمات بالتليفون كالعادة كما تعرف .. "قفوا أمام المكتبة ، عند ألتقاء شارع هوسمان بشارع كورسيل" حسناً .. صدرت إلينا الأوامر وهذا كل شئ .. والأوفق أن نخطر الزعيم الآن .

قال لوفير :

– كنت أرجو أن أجده هنا ، فعندما عرفت ماكولان فكرت فى الانصراف على الفور ، ولكن كان لدي عمل ضرورى كان لابد لى من أن أنجزه أولا ..

وسارازا ليس سهلاً .. وقد أتيت بمجرد أن استطعت .

وهنا تدخل الرجل الذى لم ينطق حتى الآن فقال :

- لسنا بحاجة إلى الزعيم لكى نفك عقدة لسانه .. إننى أتكفل به .

واختفى عن لوبين لحظة سمع بعدها صوتاً غريباً .. أشبه بالتنفس مستمر بينما جرى انعكاس أصفر فوق البلاط .. وانحنى لوفيير فوق الأسير وقلبه على ظهره .. وظهر على الفور وجه ماكولان وقد غيره الخوف .

- أسمع ياماكولان .. لاتكن أحمق .. تكلم .. أنت لم تستطع مقاومة الإغراء ، أليس كذلك .. كانت المكافأة كبيرة .

- كلا .. ليس الأمر كذلك .. أقسم لك

- لماذا ذهبت إذن إلى بيت النائب العام ؟

هتف أكبر الرجال الثلاثة :

زيارة ودية عادية .. هذا طبيعى .. دعه يامسيو لوفير .. إنه يكذب .. إنه نسى أن يقول لك أنه عرض علينا أن نقتسم معه المكافأة عندما أدرك فى السيارة أن أمره انكشف .

- حقاً ؟ .. أهذا صحيح ؟

- وهذا دليل دامغ على أنه كان واثقاً من حصوله على المكافأة .

هذا التنفس الذى حير لوبين ازداد وضوحا ، ومر نور خاطف أزرق فوق الجدران .. واستطرد الرجل :

- ومعنى ذلك أنه باعنا .

تحرك ماكولان .. كان يرى شيئاً لم يستطع لوبين رؤيته بعد .. وراح

يتلوى فى قيوده كما لو كان يريد أن يجلس وصاح :

– كلا .. ليس هذا .. سأتكلم .

قال لوفير :

– أسرع إذن .

– إليكم الحقيقة .. إننى أدرك الآن إننى أخطأت إذ تصرفت وحدى دون أن أخطر أحد .. ولكننى ظننت أن تلك المكافأة إن هى إلا خدعة ، ولهذا تظاهرت بأننى أريد أن أعترف واستعلمت عن الضمانات .. هل سأكون فى أمان ؟ .. وكيف ستكون طريقة الدفع .. وطلبت مهلة للتفكير .. وهذا شئ طبيعى ، أليس كذلك ؟

– هذا كذب يامسيو ريمون .. فقد كان مقتنعاً بأننا سنمضى به إلى إدارة الأمن تقدم .

وكانت الكلمة الأخيرة موجهة إلى ذلك الذى بقى بعيداً عن النظر .. وتقدم الرجل ، وكان يمسك فى يده مصباح لحام ينفث شعلة صغيرة صفراء .. وتأوه ماكولان .

وقال لوفير :

– مهلاً .. هل كنت تظن أنك تتعامل مع رجال البوليس ؟

–عجباً .. ضع نفسك مكانى .. لقد قال لى سارازا إننى سأجد سيارة فى آخر شارع هوسمان .

صاح الرجل الكبير :

– هذا عجيب .. كانت هناك سيارة أخرى غير سيارتنا .. وكانت تقف

خلفنا بقليل .. ولكن نائبك لم يكن باستطاعته أن يعرف ذلك .

انحنى لوفير إلى الأمام وقال :

- إيها الغبى .. أنت ترى تماما إنك تكلمت ، مادمت تعترف إن سارازا أراد أن يضعك فى مكان أمين .

وابتعد فى حين تقدم صاحب المصباح من ماكولان وسأله قائلاً :

- من أين أبدأ ؟ .. أمن قدميه ؟

تكوم ماكولان حول نفسه وصرخ صرخة بعثت القشعريرة فى بدن لوبين وقال لوفير :

- لا شك إنك غبى .. انزع حذاءه وجوربه .

هجم الأشقياء على الرجل وانتزعوا حذاءه وجوربه رغم مقاومته .. وقال صاحب المصباح :

- امسكوه جيداً .

وارتد قليلاً ثم صوب مصباحه .. وبحركت قدما ماكولان العاريتان كحيوانين مذعورين .. وقال الرجل :

- هل تحس بحرارة ؟ .. هيه سأقترب أكثر .. آه .. آه بدأت ترتعش .. إن النار تلسع .. لسعة أخرى .

تملك الذعر ماكولان ، وأوشك أن يقلب الذين يثقلون عليه بأجسادهم وقال لوفير :

- تكلم .

وتوسل لوبين بينه وبين نفسه :

– اسكت .. لا أدرى ماذا قلت للنائب العام ولكن إذا تكلمت فسوف تتبعثر كل العصابة فى انتظار أوقات أفضل .

وعاد لوفير يقول :

– هيا تكلم .

وفكر لوبين :

تشجع ، واضغط على أسنانك .

كان لسان النار الآن على قيد أقل من متر من قدم ماكولان اليمين وراحت أصابعها تتلوى فى شدة .. واستطرد لوفير :

– هل ذكرت له أسماء ؟

صاح ماكولان فى صوت غير معروف :

– كفى

– أجب أولاً .

– كلا ، وكلا .. أقسم لك .

–ماذا قلت له إذن ؟

لزم ماكولان الصمت ، وتمتم الذى يمسكه من كتفيه :

– أظن أنه أغمى عليه .

أتى لوفير بإشارة فقطع الجلاد النار وفحص القدم المحترقة وقال :

إنه يبالغ . مجرد فقاعات صغيرة لاتدعو إلى الإغماء .

قال لوفير :

- أيقظوه .

صفعات قوية هزت ماكولان ففتح عينيه وأدارهما حوله فى شرود .

وعرف معذبيه وأفلتت زفرة ألم من بين شفتيه .. وقال صاحب المصباح :

- كيف الحال ياصفيرى ؟ .. لعلك أحسن الآن .. هل تتكلم أو أبدأ من جديد ؟

وفتح النار المتأججة وعاد لوفير يقول :

- سألتك ماذا قلت له ، ومازلت انتظر الرد.

رثى لوبين للمسكين وأعجب بقوة احتماله ، ولكن هل يستطيع الصمود أكثر . اذا تكلم فسينتهى أثر سبستيان .. قد يهتدون إليه ولكن بعد أن يكون المخلب قد مضى عليه قبل أن يتفرق هو وأفراد عصابته .

وتمتم ماكولان :

- ماء .. جرعة ماء .

- فيما بعد .. بعد أن تتكلم .

- ألن تقتلونى ؟

- كلا .

- إننى قلت له أقل مايمكن .

فكر لوبين فى يأس :

- آه ياماكولان .. إنك تخيب ظنى فيك .

كان المسكين شديد الذعر كان موشكاً على الانهيار وعلى أن يخون

مرة أخرى وسيكون موته إنذاراً للآخرين ، ولن يجرؤ أحد بعد ذلك على التفكير في المكافأة . وسينتصر المخلب من جديد .. وقال ماكولان :

– حاولت أن أقول أقل ما يمكن ، ولكنكم تعرفون دهاء النائب العام .

هتف أحدهم :

كلا .. نحن لانعرف .

– إنهم قوم معتادون على استخراج الديدان من أنفك .. لقد ذهبت لكي أحدثه عن وكرنا بشارع بلانس ولا أرى ماذا يضيرنا من ذلك مادمنا قد هجرناه .. إنني شديد الظمأ .

بدأ مصباح اللحام ينفث شعلته من جديد وقال الجلاد :

– مسيو ريمون إنه يهزأ بنا .

صاح ماكولا :

– كلا أتوسل إليكم . قلت إننا يجب أن نجتمع غداً مساء في القصر .. هذا صحيح .. إنه أرغمني .. أضطررت أن أذكر له أين المكان ولكنني تكلمت في غموض .

صفعه أحد الرجال على وجهه وهويقول :

– هذا كذب ، فطبقاً لما نعرفه عنك لابد أنك أوضحت له المكان بالرسم .. سلط مصباحك على وجهه قليلاً يامارسل .

صرخ ماكولان :

– النجدة .

شدد لوبين الضغط على يديه ، وأحس بالمرض يعجزه لوأن معه

مسدساً لما تردد ، ولقتل ماكولان لكى ضع حداً لعدابه ولقتلهم جميعاً فيما بعد وبدون رحمة .. وسال العرق فوق عينيه وجففه بكمه وعاد لمراقبته وبكى ماكولان وقال :

- نعم ، نعم ، إننى أوضحت له المكان .

- وقلت له إننا سنكون جميعاً هناك ؟

- نعم .. بسبب سبستيان .

- أى إنك قلت له كل شئ .. أشويه يامارسل

ضبط المدعو مارسل شعلة مصباحه وازداد اقترابا من الرجل المسكين وهو يقول .

- أبعد يديك .. سوف نصهرك .

اهتز جسد ماكولان وتكوم حول نفسه كدميه لاحياة فيها .. وزمجر مارسل :

- لايمكن العمل مع مثل هؤلاء الأشخاص .. أمسكوه جيداً ولكن لوفير انحنى فوق ماكولان وقد انتابه الشك .. ورفع جفنى الرجل ثم قال :

- إنه مات .. قلبه لم يتحمل .. ولاريب أن الانفعال .

أحسن لوبين بارتياح كبير والصق عينيه فوق الثقب لم يعد يستطيع الاحتمال .. كانوا جميعاً يتكلمون تحته وأطفأ مارسل مصباحه وتصاعدت من المخزن رائحة بشعة من الصلب الساخن وعاد لوفير يقول :

- أؤكد لكم أنه مات

قال مارسل

– حسن .. ماذا نفعل الآن ؟

كان يخاطب أحد زملائه ، وكان هذا الأخير قد أنحنى فوق الجثة وأفرغ كل مافي جيوبها .. وقال :

– من الأوفق أن لانترك معه شيئاً .. من الذى يريد محفظته ؟.. وساعته ؟ هل أستطيع الاحتفاظ بها يامسيو ريمون ؟

كان يضع مخلفات الميت على الأرض .. وأخفت ظهور الرجال الأربعة محصول التفتيش المشئوم .. تجمعوا حول الجثة كالضباع .. وكان لوفير أول من أعتدل وقال :

– إننى أتساءل إذا كان الرئيس سيقر ذلك .

قال مارسل :

– إنما نفعل ذلك بدافع الحرص .. فما أن يعثروا عليه حتى لاأدرى .. لاأحد يأتى هنا أبداً .. ولكن قد يأتى أحد الفضوليين صدفة .. وإذا نحن تركناه بعد أن تفرغ جيوبه فلن يكون من السهل التعرف عليه

قال لوفير :

– مهما يكن فمن الأوفق أن ندفنه .

احتج الثلاثة .. كان من رأيهم أن اليوم كان طويلاً وشاقاً جداً .. وقال مارسل :

– وبماذا ؟ .. وأين .. ليس من المعقول أن نرفع بلاط الأسطبل .

قال لوفير :

– كلا .. ولكن هناك قبو فى الناحية الأخرى من المبنى .. والأرض هناك

مبلطة ، ولابد أن نعثر على شئ يساعدنا فى الحفر .. هل لك أن تذهب لكى ترى يالويس ؟

سمع لوبين أصغر الرجال يفتح الباب .. ربما كانت هذه اللحظة مناسبة للتدخل فيقع عليهم كالصاعقة .. وقال مارسل :

– ألا ترى أن الساعة تقترب الآن من التاسعة ؟ .. متى سنأكل ؟

قال لوفير :

– إذا اشتغلتم أنتم الثلاثة فسوف تفرغون حالاً .

– نحن الثلاثة ؟ .. ولم لانعمل نحن الأربعة .

– لأننى يجب أن أمضى لكى أتكلم فى التليفون .. إن موراندون سيكون فى بيته فى هذه الساعة وسيدبر أمره لإطلاع الزعيم .. فهذا اختصاصه .

فكر لوبين سريعاً .. سينقص العدو واحداً .. ثلاثة يقومون بحفر حفرة فى القبو والرابع فى مكان منعزل .. إن عجلة الحظ تدور فى صالحه .. واعتدل على ركبته فى حرص والتقط خصلة من الشعر التصقت بالأرضية .. كان أحد عارضيه قد انفصل .. وعبر المخزن على طرفى قدميه وأخرج رأسه من ركن النافذة .. كان مصباح لويس ينير أرجاء الحظيرة .. وهبط لوبين عن طريق السلم وتكوم فى الظلام .. ووجد لويس مايبحث عنه :

– معولين وجاروفاً .. ولمعت الأدوات مع الوميض الراقص .. وعاد الرجل إلى الإسطبل وسمع لوبين صيحات الارتياح .. كان الأشقياء متأكدين إنه ليس بالمكان أحد غيرهم ولهذا لم يحاولوا كتمان أمرهم .

وأعاد لوبين السلم من حيث أخذه ووقف فى آخر المبنى .. وتخلى عن تردده أخيراً لأنه لم يكن لديه أى خيار .. كان يجب أن يمنع الرجال الأربعة

بأية طريقة من الاتصال بزعيمهم ، وبهذا يتم اجتماع الغد .

سرت رعشة فى كل كيانه لدنو الخطر ، وفحص المكان مرة أخرى وعدل خطته ، فإن لوفير سيستقل السيارة دى ديون طبعاً لأن من مصلحته أن يصل سريعاً .. فعليه إذن أن ينتظره هناك .. واندفع ودار بالحوش دون أن يترك المناطق المظلمة .. وتوقف عندما خرج خصومه من الاسطبل .. وكان مارسل فى المقدمة ومع الأدوات والمصباح فى حين كان لويس وصاحبه يحملان الجثة ، أحدهما من كتفيها والآخر من قدميها ولوفير خلفهم وهو يهز المصباح الثانى .. وسار الموكب الجنائزى بمحاذاه الاسطبل واختفى تحت نافذة الحظيرة التى وضع لوبين السلم أمامها .

وقال لوبين يحدث نفسه :

– تشجعوا ياأصحابى واعملوا بهمة فإن أرسين لوبين يرعاكم .

وأسرع نحو السيارة وجلس فى المقعد الخلفى ثم أغلق الباب وهو يحرص على أن لايصدر منه أدنى صوت .. كان فى مقدوره أن يراقب الحوش من نافذتها بسهولة .. لم يعد أمامه إلا الانتظار ، فإن لوفير فى عجلته للإتصال بموراندون ، حلقة الاتصال بينه وبين الزعيم ، لن يتأخر عن الظهور .

والواقع أنه ظهر بعد بضع دقائق ، وأشعل سيجارة وأقبل نحو السيارة ويداه فى جيوبه .. وتمدد لوبين خلف مقعد السائق .. وجلس الآخر أمام عجلة القيادة وهم بأن يدير مفتاح الغاز عندما أطبقت يدان على عنقه .. وحاول أن يتملص ولكن اليدين ضغطتا بقوة بحيث أوشك أن يختنق فكف عن الحركة .. وخفف لوبين من ضغطه قائلاً :

– قليل من الهواء للسيد .. إن الجو شديد الحرارة هنا .

راح لوفير يلهث .. وقال لوبين ينصحه :

– خذ نفساً طويلاً ولا تتحرك .. لا تتحرك وإلا ...

وضغط على عنق السكرتير للمرة الثانية .

– أرأيت ؟ .. ضغطه صغيرة وتختنق كالدجاجة .. معذرة ، فليس معى مصباح لحام .. لاشئ غير يدى العاريتين .. لاتخش شيئاً فهما نظيفتان .. حسناً والآن .. إننى لا أمزح .. ماأسم القصر الذى يجب أن تجتمعوا فيه ؟

قال لوفير :

– ليس له أسم

أزداد ضغط اصبعى لوبين على عنق لوفير فشهق .

– ماالاسم ؟

– دعنى .. دعنى .. قصر فالبوز .

– هذا أفضل .. وأين يقع ؟

– على نهر السين ، بجوار سان مارتن لا جارين .. هناك ، بعد الغابة ..

– الزم الهدوء ياصاحبى.. ولا حركة مشبوهة .. فى أية ساعة الاجتماع ؟

– فى الساعة التاسعة من مساء غد .

– هذا يكفي .. حسناً .. ألا تجد أن من الأفضل أن يكون الحديث بقلب مفتوح هكذا .. ومن سيكون هناك ؟

– جميع من ليس لديهم عمل .

– والزعيم طبعاً ؟

- نعم .

- كم عددهم ؟

- ربما أثنى عشر .

- وسبب هذا الاجتماع ؟

- جروز .. يجب أن نحاكمه .

- آه .. هكذا .

توترت يدا لوبين على عنق لوفير لفرط غضبه .. وفتح هذا الأخير فمه بكل اتساعه ، وتدلى لسانه فتركه لوبين وخرج من السيارة وانتزعه من مكانه ، ولوى ذراعه إلى الخلف وأمسكه من ياقته وقال :

- قف أيها الوغد ، وإذا حاولت الصياح فسوف أكسر ذراعك تقدم .

وتحامل لوفير على ساقيه وتقدم خطوة ثم خطوتين وقال لوبين :

سنذهب الآن حيث تنضم إلى أصحابك .

وسارا فى بطء نحو المكان الذى يشتغل فيه الرجال الثلاثة .. وعاد لوبين فقال :

- تكلم .. أهذا المكان أسطبل هو أيضاً ؟

- نعم .. ولكنه تحول إلى مصنع لصناعة السروج .

- والمكان الذى تحته .. أهوقبو ؟

- نعم .. وهناك .

- فهمت .. تقدم .

وتناهت إلى آذانهما أصوات صماء .. كان الرجال يبذلون جهدهم فى الحفر .. ورأى لوبين وهو واقف بعتبة المصنع المنظر الأول وهلة .. كان أحد المصباحين موضوعاً على الأرض بجوار الباب القلاب المفتوح ويعكس نوره على الدرجات الأولى الشديدة الإنحدار .. وما كان ليحلم بفخ أفضل من هذا ويدفع بصاحبه إلى الأمام .. ورأى تحت ، فى القبو ، جزءاً من جثة ماكولان وأحد المجرمين يضرب بمعوله .. وهمس فى أذن لوفير :

– سوف تقع ، ولكننى أنبهك حتى لاتصاب بكسر .. هوب .

وضغط على جانبى السكرتير بحيث فقد توازنه فوقع وقدماه مضمومتان وارتفعت الصيحات ، وأسرع لوبين فأغلق الباب ووضع المزلاجين والقضيب .. وخفت الضوضاء شيئاً ما ولكن الأسرى هاجوا وماجوا ، ولم تلبث أيديهم أن راحت تدق على الباب فى عنف .. وفكر لوبين :

– إن بمقدورهم تحطيم الباب بمعاولهم .. ليتنى أستطيع أن أجد شيئاً .

ونظر حوله بحثاً عن شئ ثقيل .. كانت الغرفة عارية تماماً .. ربما يجد شيئاً فى الحظيرة .. وأخذ المصباح ومضى ليفحص الحظيرة .. كانت عربة السيد صالحة للإستعمال .. وكان هناك برميل ولكنه كان فارغاً وخفيفاً جداً ورأى سنداناً فى ركن من الحظيرة وحاول أن يرفعه ولكنه لم يفلح حتى فى زحزحته .. ورأى عندئذ هراسة كتلك الهراسات التى يراها المرء فى الحقول والتى يجرها الخيل فتعلق بالعريشين ، ولكنه لم يستطع أن يحركها قيد نملة هى الأخرى فقال :

– ويحى .. إننى لم أعد لوبين ..

ولحسن الحظ رأى بين الحطام عتلة ضخمة استطاع بأول دفعة أن يحرك

الآلة الثقيلة .. وبدفعة بعد أخرى بلغت الهراسة الحوش .. ولاحظ لوبين فى سرور أن أرض الحوش منحدرة بعض الشئ فتعلق بالهراسة وجرها بكل قوته فراحت تتحرك فى بطء .. وكان يكفى أن يحولها إلى الاتجاه الصحيح لكى تبلغ الباب .. ولكن الباب لم يكن عريضاً بمافيه الكفاية لكى تمر منه .

ومهما يكن فقد فات الأوان لكى يفكر فى ذلك فإن الهراسة الثقيلة انزلقت فجأة واندفعت فى شئ من الإنحراف فانتزعت باب الغرفة من مكانه واستقرت فوق الباب وغطته من كل نواحيه .. وتوقفت الضربات على الفور

جفف لوبين وجهه الذى يتصبب عرقاً وفحص نتيجة عمله فى ارتياح كبير ثم صاح :

– لاتنفعلوا كثيراً أيها السادة فإنكم تتعرضون للإختناق .

أجابته صيحات غضب وسباب .. وابتسم لوبين وجفف وجهه بمنديله ونزع خصلة الشعر التى لاتزال تغطى خده الأيسر ثم نظر إلى ساعته .. كان الليل قد هبط منذ وقت طويل ولكن لم يكن هناك وقت يضيعه فقضى بضع لحظات فى القيام ببعض الحركات الرياضية لكى يعيد الدم فى عروقه وتوقف فى أول الشارع لكى يقرأ الأسم الذى على اللافتة :

شارع ١٤ يولية .

ومضى بعد ذلك إلى سيارته وعاد إلى باريس .. وروى ظمأه فى شارع ألمانيا ثم اتصل بفنسان سارازا تلفونياً وقال :

– سيدى النائب العام .. أنا الأستاذ بيشيرو .

– الحمد لله

–عندى أنباء جديدة .

– وأنا أيضاً .. عجل بالحضور ، إنتى فى انتظارك

* * *

لم يضع لوبين وقته فى الذهاب إلى بيته ليستبدل ثيابه وإنما مضى مباشرة إلى شارع كورسيل .. وفتح له النائب العام بنفسه .

– من أنت ؟

وأدرك لوبين عندئذ أنه من غير عارضيه ، قد أصبح رجلاً آخر فقال :

– أنا راوول دى ليمنرى .. المحامى سابقاً .. رأيت أن أتنكر فى صورة الاستاذ بيشيرو لأننى كنت أرتاب فى الناس المحيطين بك .. وكنت على صواب حقاً فإن ريمون لوفير ، سكرتيرك الأول ، من أفراد العصابة سمرت الدهشة سارازا مكانه وتمتم :

– لوفير .. لوفير .. هذا محال .

وبذل جهداً كبيراً لكى يتمالك نفسه وقال :

– لنمض إلى مكتبى .. أنا وحدى ، ويمكننا أن نتحدث فى هدوء .

وعلى الفور ألقى لوبين السؤال الذى ظل يؤرقه منذ أن انتزع اعترافات لوفير :

– سيدى النائب العام .. هل قدمت استقالتك ؟

– نعم ، بعد ظهر اليوم .. وقد شرحت لك لماذا اتخذت هذا القرار .

– هذا أمر مزعج جداً .. ألا يمكنك استردادها ؟

– لا أستطيع ذلك ، ولا أريد أن أفعل ، فإن لى حساباً مع المخلب أريد أن أسويه .

وأخرج مسدساً من أحد الأدراج وألقاه فوق المكتب وهو يقول :

– أتظن إنني أستطيع وأنا في الخدمة أن اقتص بنفسي من المجرمين ؟ .. كلا ، وألف كلا .. لابد لي من أن أبلغ البوليس ، وسيعرف المجرمون ، بالوسائل التي يملكونها كل شئ على الفور في حين إنني أستطيع الآن مفاجأتهم بفضل اعتراف رجل يدعى ماكولان و ..

قاطعه لوبين قائلاً :

– قصر فالبوز ، على مقربة من سان مارتن لاجارين غداً في الساعة التاسعة مساء .

ذهل سارازا ورفع حاجبيه في حين استطرد لوبين :

– ماكولان مات ، أما سكرتيرك فهو سجين في قبو مع ثلاثة شركاء .

– آه .. أصحيح هذا أيها السيد ؟ اعتدل لوبين ، وسقط الضوء مباشرة على وجه النشط .. كان الآن رجلاً شاباً يتقد حماسا وانفعالا .. حل محل المحامي المزعوم ، وقال في عزم وقوة :

– لك أن تثق بي فأنا أيضاً لي حساب خاص مع المخلب لابد لي من أن أسويه .

وراح يروي الأحداث التي وقعت منذ لقائه بمادلين فيريل .. وأصغى فنسان سارازا إليه وهو لايحاول إخفاء دهشته .. وسادت دقيقة صمت بعد أن فرغ .. وقال سارازا أخيراً :

– وكل هذا بمفردك ؟ .. أعترف لك أن .. أن هذا مدهش جداً .. لك تهانئي أنت رجل جرئ في قراراتك .. عرفت من ناحيتي من هذا الماكولان نفس الأشياء التي عرفتها أنت من سكرتيري .. آه أقسم لك أن لوفير سوف

يندم على خيانة ثقتى .

ومر بيديه أمام عينيه فى بطء ثم نظر إلى محدثه ملياً وقال .

– سأعترف لك بشئ يامسيو ليمنرى .. كنت قد عقدت العزم على الذهاب هناك .. وحدى لملاقاه هذه العصابة ، وكنت أعلم أن هذا عملاً يائساً وأننى سألقى حتفى حتما ، ولكن قد لايكون ذلك إلا بعد أن أصرع بيدى ذلك الذى .. هل تعرف شعور الرجل عندما لايجد بجواره تلك التى كانت سبب حياته ؟

– إننى أعرف ذلك .

– أنت تعرف إذن أنه سيان عندى أن أموت ، ولكننى بعد أن أستمعت إليك وأدركت مدى قدرتك .. أجل يامسيو دى ليمنرى .. إننا لا نلتقى بمن هم على شاكلتك كثيراً ، وقد بدأت أعتقد ان هناك فرصة فى أن ننجح معا .

قال لوبين:

– هى فرصة ضئيلة جداً .. ولكن ستكون لنا ميزة المفاجأة غير أننى مازلت أعتقد أن البوليس لو قام بدوره جيداً وتدخل .. أخيراً سوف نبذل قصارى جهدنا .

وكان فنسان سارازا قد ثبت بدبوس تحت صورة زوجته خريطة للمنطقة فعلم الطريق الذى يجب اتباعه بالقلم العريض ، ثم جلسا وعكفا على دراسته جيدا ووضعا الخطوات الأخيرة واتفقا على اللقاء فى اليوم التالى .. أقل من أربع وعشرين ساعة تفصل بينهما وبين المواجهة الأخيرة .

* * *

٩ مقر الاجتماع

قال فنسان سارازا :

- هذا هو الطريق .

وكانا قد تجاوزا مانت منذ أكثر من ربع ساعة وأبصرا أمامهما أولى أنوار قرية سان مارتن لاجارين .. وكان سارازا جالساً أمام عجلة القيادة فداس على الفرامل وراح يبحث عبثاً عن لوحة ارشاد .. ووضع لوبين أصبعه على الخريطة ووافقه قائلاً :

- هذا هى الغابة التى نراها هناك .. لايمكن أن تكون قد أخطأنا .

وانعطفا إلى الطريق الضيق المتعرج ، بين حقول القمح ، ولزم لوبين الصمت .. كان يتحاشى دائماً قبل أية معركة التفكير فى أمور محددة بالذات ، فهما أثنان ويستقبلان مع خمسة أوستة ولم يسبق له أبداً فيما سبق أن اشتبك فى معركة غير متساوية كهذه ، ولهذا فقد كان من الحكمة التامة أن لا يفكر ، وسوف يرى مايجب عمله عندما يصل إلى المكان .

وبلغا أول الغابة وانطلقا بمحاذاتها نحو كيلومتر .. وكان سارازا يقود فى بطء لأن الليل كان قد بدأ يرخى سدوله ، ولم يكن هناك داع لإضاءة الكشافات .. ووجدا فى المكان المقصود كوخ الصيد القديم ، وبعده على

الفور الطرقة التى تؤدى إلى القصر .. وقال سارازا :

- سأخفى السيارة تحت الأشجار .. هناك أدغال كثيفة خلف هذا الكوخ اهبط سوف ترشدنى أنت .

دار لوبين بالكوخ ، وألقى نظرة إلى الداخل فى حذر .. لم يكن هناك أحد كان السقف مثقوباً وأنقاض من الخشب والحجارة تملأ الأرضية ، ولكن المدفأة كانت وحدها تبدو سليمة .. وأضاء لوبين مصباحه الكهربى ومشى القهقرى أمام السيارة وقادها إلى دغل كثيف بحيث لايمكن رؤيتها لا من الطريق ولا من الطرقة .

وهمس سارازا :

- كل شئ على مايرام .

وتحسس جيوب المعطف الواقى من الغبار الذى يرتديه وتحقق من محتوياته مسدس ورصاصات ومصباحى الكهربى .. وخنجر .. وكرة من الدوبارة .

أوشك لوبين أن يهز كتفيه ، فقد تعاون مع مساعد وأى مساعد ، وندم لأنه لم يأت بمفرده .. وقاطعه قائلاً :

- هذا حسن .. قد لانحتاج إلى كل هذه الأدوات طبعاً .. تعال ، والزم الصمت .

وسار فى المقدمة ، بدون صوت ، وكان يتحول من دقيقة لأخرى إلى ذلك المغامر السافر العتيد الذى انتصر فى العديد من المعارك .. وراح زميله يتبعه بقدر استطاعته وهمس يقول :

- لا تسرع هكذا... أرى الآن إن مهنتى لم تعدنى تماماً لمثل هذا

العمل .

- صه .

وانتهت الطرقة إلى جدار يحيط بالبستان .. وكان الجدار يعلو ويمتد حتى الأفق ، وقطع الزجاج المنثورة فوق قمته تتلألأ فى وميض قاسى .. كان يعرف بالتجربة إن هناك دائماً فى مثل هذه الجدران القديمة ذات المنظر المنفر بضع ثغرات مألوفة عند لصوص الدجاج .. والواقع أنهما اكتشفا ثغرة على بضع مئات من الأمتار ، حيث تتاخم الغابة البستان وتبدو أشد كثافة .. وكان من السهل عليهما تسلق الجدار من هذه الناحية وهبطا فوق طبقة كثيفة من العشب وتقدما كالاشباح .

وتجاوزا ستاراً من الأشجار ورأيا القصر .. والواقع أنه لم يكن أكثر من مسكن ريفى شيد فى القرن السابق .. وكان عبارة عن مبنى رئيسى يتبعه برج صغير يقع قبله حوش صغير تفضى إليه عشر درجات .. وكان القصر يبدو شاغراً لا تنبعث منه أية أضواء ولا أى صوت .. ونظر سارازا إلى ساعته وقال :

- التاسعة إلا عشر دقائق .. كان من المتوقع أن نجد بضع سيارات .. على كل حال لا أظن انهم أقبلوا سيراً على الأقدام

أجفل لوبين و قال:

- هذا محال لم يستطع أحد أن يخرج من القبو .

لم يستطع أحد أن ينذرهم

و تابعا سيرهما، و اخذا يتنقلان من شجرة الي أخري وهما منحنيان ، حريصان علي الا يراهما أحد .. ولم يبلغا مدخل الفناء الا بعد

دقائق عديدة .

كان الصمت المخيم علي البيت مؤثراً جداً .. وازداد الظلام ، و كان أقل ضوء ينم عنهما ، و كان القصر يرتفع بهيئته الكئيبة ويرمى بظلاله إلى الأفق حيث تمر السحب الآتية من الغرب .. وكانت البشائر تدل على أن المطر سينهمر قبل آخر الليل .. وقال سارازا :

– فلنقم بدورة حول البيت .. أحياناً تكون الأبواب الخلفية دون حماية تذكر .. واتذكر قضية .

ولكن لوبين عاد ينطلق محدودب الظهر على أهبة التراجع والهرب لأنه كان يعلم أنه أصبح الآن على مرمى أسلحة العدو .. وبلغ الجدار الأيسر فى بضع وثبات وأشار إلى سارازا أن يحذو وحدوه .. وتقدما الواحد خلف الآخر بمحاذاه الجدار حتى الواجهة .. وهمس سارازا :

– ليس من الباب العمومي فإن ذلك يعد من الجنون .

و كان لوبين قد أخرج من جيبه علبة صغيرة تحتوى على أدوات دقيقة وقال سارازا مشدوهاً :

– ولكن هذه أدوات لتفتح الأقفال .

– صه .. أنت تعرف تماماً أن هذا من صميم على .. انتظرنى هنا .

ودار بالمدخل وبدأ يصعد الدرجات .. أصبح واثقاً الآن إن العصابة انتقلت إلى مكان آخر فهل جذب الصراخ أحد المارة فنقل الهراسة وأطلق المساجين .. كان هذا أمراً قليل الاحتمال .. ومع ذلك .

واختار بالغريزة المفتاح المناسب لأن القفل انفتح عند أول محاولة .. وفتح الباب بطول ذراعه وهو يحرص على البقاء أبعد ما يستطيع .. ولكن لم

يحدث شئ .. وعندئذ أتى باشارة سريعة بمصباحه فانضم سارازا إليه وهمس :

- يخامرنى إحساس بأن البيت خاو .

ودلفا إلى بهو وكل منهما يحمل مسدسه في يده ، وكان واسعاً راح نور مصباحيهما يضيئ على التوالى الواحة الخشبية الخضراء وأعمدته ومراياته وحدد لوبين بسرعة مكان الأبواب ، ورأى فى آخر السلم ببساطه الأحمر .. وأحاطهما صمت البيوت العتيقة ، وكان صمتا ثقيلاً رطباً ، تفوح به رائحة الزهور الذابلة والورنيش .. وفتح لوبين أول باب صادفه فى حرص شديد ، وسلط ضوء مصباحه على الجدران وما كاد يفعل حتى صاح :

- ياإلهى !

أطفأ النور وقلبه يركض بين ضلوعه .. كلا .. أنه يعيش كابوساً بلا ريب أو لعله لم ير جيداً واقترب سارازا منه وسأله قائلاً :

- ماذا بك ؟

- مابى ؟ .. انظر .

وعاد لوبين فأضاء مصباحه وسلط نوره على اللوحات المعلقة لصق الحائط .. وقال سارازا :

- عظيم .

- كيف .. عظيم ! .. و لكن ألم تفهم بعد ؟ .. هذه لوحة العذراء لرافائيل و هذه سقطة ايكاروس و هذه لوحه القنال الكبير .

وكان يمضى من مكان لآخر ، وكلما فعل خرجت من الظلام لوحات أخرى سالومية لتيتيان .. وتجار المعبد لكارباكشيو .

و كانت اللوحات تتألق فى هدوء قبل أن تختفى ، واحتفظ لوبين فى أعماق عينيه بصورة متألقة لوجه العذراء وبروفيل شيخ مسن وحسناء فى الجندول وتمتم :

– ياإلهى ! .. إنها جميعها هنا .. لوحات الإبرة .

– ماذا ؟

– آه .. ماعليك .. كنت أحدث نفسى فحسب .

ولم يسعه إلا أن يضحك فى حزن ويقول :

المتحف الخاص بزعيم عصابة المخلب فى متناول أول قادم .. كلا ، ليس هذا ممكناً .

وأزاح الستارة التى تخفى أقرب نافذة .. كانت مزودة بقضبان حديدية متينة تقيها من أى غاصب .. وعاد إلى سارازا وأمسك ذراعه فى عنف وقال

– إنها هنا .. لايمكن أن يترك أحد مثل هذه الكنوز هكذا .

وعادا إلى البهو ، وكان الهدوء والصمت لايزالان يخيمان عليه .. وأصاخا السمع فى توتر وتأهب للدفاع عن نفسيهما .. ولكن لم يظهر أى خطر حولهما فتقدما نحو السلم وأناره لوبين حتى المنعطف .. وقال سارازا :

– إن الحجرة التى يسمونها العيادة تقع فى آخر البهو .. لقد قال لى ماكولان .

وتقدم لوبين ودفع الباب .. لم تكن بالجدران أية نوافذ ، وضاعف نور المصباح لونها الأبيض .. وفى وسط الغرفة منضدة عمليات تمدد فوقها رجل موثق اليدين والقدمين ومكمم الفم ومغمض العينين .

– سبستيان .

وأسرع لوبين إليه .

- سبستيان .

- سبستيان .. إنهم خدروه .. مسيو سارازا ، هل تتكرم وتغلق الباب لكى أضيئ النور .

ووجد مفاتيح النور بجوار دولاب زجاجى به كمية من الأدوات الجراحية لا يبعث منظرها الاطمئنان .. وأدار أول مفتاح فأنار المصباح المدلى فوق المنضدة .. ودس لوبين المسدس فى جيبه وأخذ من الدولاب مشرطاً قطع به قيود الشاب وقال :

- حسناً ياسبستيان .. افتح عينيك بالله .. أنا مسيو راوول .

ونزع الكمامة وهز الشاب المسكين الذى تفتحت عيناه على نظرة حائرة مضطربة :

- هل عرفتنى ؟ .. أفق بالله .. لا يمكننى أن أحملك فوق ظهرى ، ثم أننا على عجل .

ومرر ذراعه تحت كتفيه وساعده على الجلوس .. اعتمد على .. هكذا .. هل أنت أحسن الآن ؟

قال صوت خلفه :

- منظر مؤثر .. مؤثر جداً فى الواقع .

هذا الصوت .. أخلى لوبين سبستيان واستدار .. لم يكن أمامه أحد غير سارازا ، وكان هذا الأخير يبتسم .. وقال :

– جهد صغير آخر .. آه .. أرى أنك بدأت تفهم .. طبعاً .. بغير تنكرى وبدون نظارتى السوداء أفقد كثيراً من شخصيتى الرومانتيكية .. ولكن أنا هو حقاً يالوبين .. لأننى أستطيع أن أدعوك باسمك الآن ، أليس كذلك ؟

حدث عندئذ شئ عجيب، فكلما جدق الخصمان فى بعضهما البعض كانت تبدل هيئتهما تغييرات دقيقة جداً كما لو أن فناناً ماهراً أعاد إليهما بلمسات حاذقة مظهرها الحقيقى ، فقد أزداد وجه النائب العام حدة وقسوة وبدت رأسه كأنها تغوص بين كتفيه ونوع من الشر الساخر يومض فى عينيه فى حين راحت شفتاه ترتعشان رعشة خفيفة كما لو أنها عادة عنده .. أما لوبين فقد بدا أكثر رشاقة وأكثر طولاً وتخلص فجأة من كل فتور واسترخاء وراح كل مافيه يدل على اهتمام بالغ وبدا كأنه يجمع كل قواه استعداداً للهجوم .. وقال زعيم المخلب :

– أى صديقى العزيز .. أنك تخيب ظنى.. كيف ؟ .. هذا اللص المحبوب الذى تسببت انتصاراته العديدة فى انسياب كثير من الحبر ، لم يفهم أن النائب العام هو وحده الذى تؤهله وظيفته لإدارة عصابة من المجرمين دون أن يتعرض لأى خطر .. اصفح عنى ولكنك لست إلا شاب صغير .. هل تسمع ياسبستيان .. أن صديقك مسيو راوول إن هو إلا رجل إمعه .

وكان سبستيان يعود إلى وعيه شيئاً فشيئاً .. ونظر إلى الغريمان فى ذعر ، وقال سارازا :

– تفضل بالقاء هذا المشرط على الأرض .. نعم .. أمامك .. فى رفق وإلا الهبت رأسك ، *وهذا أمر مؤسف لأنه لدينا مانتحدث فيه .. والآن ، ابعده* بقدمك نحوى .. حسناً .

وانحنى فى خفة مدهشة عند رجل يبدو أنه لا يمارس الألعاب الرياضية ،

والتقط الشرط .. وسأله لوبين في برود أثار حنق محدثه بعض الشئ .

– هل أستطيع أن ألقى سؤالاً ؟

– تفضل .

– كيف اكتشفت ؟

– شخصيتك ؟ .. هذا أمر سهل .. راودتنى شكوك قوية عندما قدم لى ماركو تقريره عن سطوك .. هل تتذكر ؟ .. عند رجل الأعمال .. وأرسلته عندئذ بطريق الصدفة إلى شارع هنرى مارتن وتقدم إلى صاحب البيت بصفته مندوب تأمين ، وهى حجة معقولة ، ففى أيامنا هذه يؤمن الكثير من الناس على حياتهم وهى مودة جاءتنا من أمريكا .. وما كانت أشد دهشته ..

– حين رأى الأشياء التى سرقناها معاً .. هذا عظيم .

– أرأيت ؟

كان سارازا يتكلم فى سخرية كبيرة ، واعترض لوبين قائلاً :

– ولكن هذا لايدل على اننى .. أنا .

– هذا صحيح .. ومع ذلك ، فإن الطريقة التى تمت بها العملية .. إننى أدين لك باعتراف ياصديقى .. إننى درست أساليبك ووسائلك كثيراً قبل أن أمارس هذا العمل بنفسى .. ومن المؤكد أنك أفلحت فيما سبق وحققت بعض الأعمال الجميلة .

– أشكرك .

– ولكنك منيت بالفشل أحياناً كالجميع .. إليك مثلاً قضية الإبرة المجوفة

يكفى أن غلاماً على غير قدر كبير من الذكاء .. لقد كانت هذه العملية فشلاً ذريعاً لك .. كان يجب أن تقتله ياعزيزى لوبين ففى مهنتنا هذه لا يحق لنا أن نكون عاطفيين .

قال لوبين مخاطباً سبستيان :

– أفسح لى قليلاً .. سأكون أحسن وأنا جالس فإن حديث السيد قد يطول .

وجلس فوق منضدة العمليات وعقد ساقيه وقال :

– إننى مصغ إليك .. ترك سارازا مكانه عند الباب وتحرك قليلاً والمسدس لايزال مصوباً لكى يواجه عدوه وقال :

– كنت أشك إذن فى أنك أنت الشخص الذى سألتقى به ذات يوم ، ولاسيما بعد أن أهتممت أنا نفسى بالابرة المجوفة .. ومهما يكن فقد أيقنت أنك تقوم بلعبة مزدوجة ولكى اقتنع تماماً خطر لى أن أرسلك إلى مرسيليا .. ولكن سبق أن تحدثنا فى ذلك .

– هذا صحيح .. كان عملاً أتقنت أنت تدبيره تماماً .

– كنت أعلم أنك طبقاً لما هو معروف عنك لايمكن أن تقدم على قتل شخص مامهما كان أمره .. ولكنك لن تقف جامداً أمام سحر مادلين فيريل

قال لوبين :

– حذار ، فإننى يمكن أن أغضب .

– أنفعل ولا تتردد فأنت هنا فى بيتك .

حدق الرجلان كل منهما فى الآخر .. وألقى سبستيان يداً فوق ركبة لوبين

وهمس :

– لاتتحرك .

قال سارازا :

لابأس ياصغيرى فالخوف بداية الحكمة .. أرأيت أيها الصديق العزيز .. إن مايميزنى عنك ليس الذكاء ولا البراعة الفائقة فأنت لاتفتقر [illegible] شئ منهما وإنما شئ آخر .

وبدا كأنه يسأل نفسه وتوترت شفتاه فى حركة سريعة كما لو أنه أحس بلسعة جرح قديم واستطرد :

– ليس لى قلب .. وهذا غريب ، ولكن الأمر كذلك حقاً ، وقد هنأت نفسى على ذلك لأننى عندما أشرع فى شئ أمضى فيه حتى النهاية .. إننى لا أتحايل مع العقبة كما تفعل أنت وإنما أزيله من طريقة ، وهذا هو السبب فى أن مهنتى منحتنى الكثير من التعويضات والكبرياء ، فقد أعدتنى لممارسة أعمال أكثر طموحاً .

وتقدم خطوة نحو لوبين وحدق فى عينيه وقال :

– مامن أحد برئ .. إذن لماذا نتشدق بالشرف والاحترام وكل تلك المشاعر المسرحية ؟ إننى أكره الممثلين ، وأكرهك أنت يالوبين لأنك اشفقت دائماً أن تبدو كما أنت فى الواقع .. رجل مثلى .. أو بمعنى آخر رجل فى نفس طريقى بالذات .

وخفض مسدسه واستطرد :

– إننى أترك لك فرصة .. أنضم إلى [illegible] فأنا رجل [illegible] وحيد ، وسوف نملك الدنيا معاً .

قال لوبين :

مما يؤسف له أن الدنيا لا تكاد تكفيني أنا وحدى ،

أرتد سارازا إلى الخلف كما لو أنه تلقى صفعة قوية وصوب مسدسه إلى قلب لوبين وقال فى رفق مخيف :

– ألا ترى إذن إننى أمزح .. إننى أعبد المزاح .. عندما أرسلتك إلى مرسيليا كنت أمزح ، وعندما أتيت بمادلين لأثير ارتباكك كنت أمزح ، وكنت أمزح أيضاً عندما تركت هذا الأحمق سبستيان ينقذك .

وانفجر ضاحكاً وجفف عينيه بركن منديله فى رفق ثم آستأنف حديثه قائلاً :

– معذرة فإننى أبكي .. ولماذا لا يترك سارازا زعيم المخلب هذا المسكين جروز ينقذ لوبين ، مادام اهتمام لوبين الأول هو الإسراع بالاتصال بسارازا النائب العام .. كنت أفقدك من ناحية لكى أستردك من ناحية أخرى .. كنت تنتقل هكذا بينى .. وبينى .. هذه هى المواقف التى أعبدها .. آه .. إننى أدين لك بلحظات لن أنساها .. حين أفكر فى اليوم الذى جاءنى فيه الأستاذ بيشيرو بتلك القائمة المشهورة .. لوبين الشريف الذى يبادر بكل سرعته إلى طريق الفضيلة .. ووجهك الجميل كرجل يحترم القانون عندما عدت لكى تخطرنى أن تلك القائمة مزيفة .. ومتشكك مع كل هذا .. تشك فى الجميع بدءاً بسكرتيرى .. لم تكن مخطئاً على كل حال ، وقد فطنت أنت إلي ذلك ، وأقول له بهذه المناسبة أنه لايزال فى القبو مع الثلاثة الآخرين .. سأتركهم يتقبلون على الجمر بغض الوقت .. سيعلمهم ذلك ماذا يكون مصير الأغبياء .. أفهمت الآن لماذا لوفير .. كان يجب أن أغطى نفسى ، فإذا اكتشف أحدهم ذات يوم أن هناك أسراراً تتسرب من

مكتب النائب العام سارازا قدمت لهم لوفير لكي يكون كبش افداء .. لوفير الشجاع .. نوع الخائن الأمين .. ولم يشك أبداً في أنه كان يعمل مع سارازا ضد سارازا.

وانفجر ضاحكاً للمرة الثانية .. وراح نوبين يهز ساقيه في رباطة جأشه ، كرجل يتملكه الأنزعاج وكان يربت بيده من وقت لآخر على كتف سبستيان لكي ينصحه بالهدوء .. واستطرد سارازا :

– وأعلم أن لوفير ماكان ليخشي شيئاً على الإطلاق .. تصور لحظة أنهم ألقوا القبض عليه وقدموه للمحاكمة .. أليس النائب العام موجوداً لكي يطالب بأخف الأحوال .. إنني ، بحكم وظيفتي ، أنقذ من أريد وأهلك من أريد .. تذكر شومينار وبرجون .. ألم أطح برأسيهما ؟ .. أنا سيد الرحمة والقسوة .. وسأكون كذلك مدة طويلة لأنه لابد أن تعرف إنني لم أقدم استقالتي ، فأنا لست بهذا الغباء .

قال لوبين :

– أما أنا فلو كنت مكانك لأرشدت البوليس إلى مسيو راوول .. وأنحني يحييه تحية خفيفة لكي يسعدني وجوده في المحكمة .

صاح سارازا،

– ولكنني فكرت في ذلك .. غير أنني ماكنت أستطيع ، لسوء الحظ ، الحصول على حكم بالاعدام .

– وأنا أستحق الموت طبعاً ؟

– بكل تأكيد .

– لماذا ؟

– لما سوف تقول الآن .

ابتسم لوبين وقال :

– هذا صحيح ، فقد جاءت اللحظة لكي نتكلم عن شخص كنت تظهر نحوه شعوراً متناقضاً .. مدام سارازا ، فقد اكتشفت الحقيقة .

– نعم .

– وكانت تكرهك .

– كانت تنفر وتتقزز مني ، وأنا لا أحب الأشخاص الذين يتقززون منى .. أقصيهم عن طريقى نهائياً .

– وما مادلين ؟

– لم أبت فى أمرها بعد .

– أنت رجل فظيع .

قال سارازا فى شئ من الإرتياح والرضا :

هذه هى الكلمة التى كنت أنتظرها .. أنا رجل فظيع .. ليكن .. ولكن هناك كلمة أخرى وهى إننى فنان .. وكنت أظن أنك ستفهم ذلك رغم انحيازك .. ولكن فكر جيداً يالوبين .. لماذا أمرت باختطاف زوجتى فى حين أننى كنت أملك وسائل أخرى كثيرة للتخلص منها .

– لكي يقتنع الناس بأن زعيم عصابة المخلب أراد أن ينتقم من النائب العام سارازا الذى أرسل شومينار وبورجون إلى حبل المشنقة .

– تماماً .. ولكن ليس هذا بالسبب الحقيقى .

صاح لوبين محنقاً :

–آه إننى فهمت .. كنت تريد حجة طيبة تبرر بها عرض مكافأة واختبار شركائك .

قال سارازا :

أصبت .. هل تريد كل الحقيقة ؟ .. إننى أهزأ بالمال وأهزأ بالسلطان .. إن مايثيرنى هو هذا الحد الفاصل بين القاضى الذى هو أنا وبين المجرم الذى هو أنا .. أن أحدهما يقدم ضحايا للأخر .. إليك ماكولان مثلاً .. لقد باع نفسه للنائب العام ، وهذا الأخير يوجهه إلى السيارة التى يحتفظ بها المخلب على استعداد .. أليس هذا جميلاً ؟

وثبتت عينا سارازا فى محجريهما وجفف بأطراف أصابعه العرق الذى بلل صدغيه .. وسأله لوبين :

– وهذان الرجلان .. القاضى والمجرم .. هل يعيشان فى وئام .

أجاب سارازا فى عنف :

– هذا شأنى أنا وحدى .

قال لوبين فى طرب :

– أما أنا فلى رأيى فى هذا الصدد .. لاتغضب على ليس فى نيتى أن أكون بغيضاً ولكنك ، فى النهاية ، لم تقتل أبداً أحداً بيديك أنك تعهد دائماً بهذا العمل إلى الغير ، ثم أنك تفعل ذلك رغم أنك بعيد عن الجرأة ورباطة الجأش لأنك بحاجة إلى أن تحتمى خلف قناع .. قناع النائب العام فى المحكمة وقناع زعيم العصابة خارج المحكمة .

– كفى .

– والحقيقة أنك لم تر أبداً أحداً وهو يموت .. وإنما تعيش جرائمك فى

الخيال وكل شئ يدور هنا " وضرب جبينه بيده " ولكنك لن تجد الجرأة أبداً لكي تضغط على الزناد فى بطء وعزم كالجلاد الواثق من نفسه .. حاول .. وأطلق .

مد سارازا يده المسلحة وقال لوبين :

– إنك ترتجف بحيث ستخطئنا .

تغيرت سحنة سارازا وارتسم عليها ذعر جنوني وأردف لوبين :

أنت لاتصلح إلا لمستشفى المجانين .

وفجأة دوى رنين فى البيت وظل يصلصل طويلاً وبطريقة محزنة .. وتناهى إلى الأسماع صوت أقدام تجرى وتتحرك فوقهم .. وردد الصدى ضربات متكررة فى العيادة اهتزت لها الأدوات المعدنية المرصوصة فوق رفوف الدولاب وقال لوبين :

– الإنذار .. لقد أخفيت رجالك فوق ، أليس كذلك ؟ .. لدى إحساس بأن هناك من حبسهم .. أنت هالك يامسيو سارازا .

وراح الرنين يصلصل بطريقة قاسية .. وأخذ سارازا يمد يده الطليقة خلفه لكي يمسك اكرة الباب .. وخمن أن لوبين سيهجم عليه فراح يطلق الرصاص كيفما اتفق .. وصاح لوبين بسبستيان :

– انطرح أرضاً .

وأصابت الرصاصات زجاج الدولاب وارتدت وهى تصفر .. وأنفتح الباب وانقطع صوت الطلقات ، وأعقبه صوت شئ هش .. صوت جسد يتهاوى .

رفع لوبين رأسه .. رأى مادلين فيريل على العتبة وفى يدها مسدس لايزال الدخان ينبعث منه .. وعند قدميها النائب العام متكوماً على نفسه

وذقنه فوق صدره وشعره ملوث بالدم .. وانتصب لوبين واقفاً مرة واحدة وتمتمت هى تقول :

- أنت غير مصاب .. إننى .. إننى .

واعتمدت على إطار الباب .. كانت ممتقعة اللون .. وصاح لوبين :

- آه .. ليس هذا بوقت للإغماء .

وأسرع لمساندتها .. ووقف سبستيان بدوره ، وكان مختفياً خلف المنضدة .. وقال لوبين :

- هل أنت سليم ؟ .. ساعدنى .. أحضر مقعداً .

وعاون المرأة الشابة على الجلوس لم تفقد رشدها وراحت تسترد وعيها شيئاً فشيئاً .

- وأمض واوقف هذا الجرس ياسبستيان .. لقد أصبح صوته مفرغاً .. مادلين ، هل تسمعيننى ؟ .. شكراً لك .. إنك أنقذت حياتنا دون شك .

وعاد سبستيان وهو في أشد الأرتباك وقال :

- لا أدرى أين جهاز التوقيف .

تمتمت مادلين :

- فى أول البهو .. على يمين الباب .

قال لوبين :

- أنا ذاهب .. اهتم أنت بها .

واجتاز البهو ركضاً واكتشف الجهاز على الفور وقطع الرنين .. وعندئذ وخلال الصمت خيم فجاة ارتفع فى الخارج وقع خطوات .

– آه .. آه جاءتنا زيارة ...

وعادت الخبطات فى الدور الأول من جديد وصاح صوت يقول :

– أيها الزعيم .. أيها الزعيم .

وعلى الفور ، رد عليه صوت آخر كالصدى يقول :

– افتح الباب باسم القانون .. دفع لوبين المزاليج التى تسد الباب على الفور وبدون أى صوت .. كان البيت بقضبانه الحديدية ومصاريعه المغلقة أشبه بحصن يصمد لحصار طويل .

وأسرع فعاد أدراجه .. ونظرت مادلين إليه فى انفعال غريب .. فيه مزيج من الخوف والاعجاب .. وقالت :

– أخبرنى سبستيان .. أنت .

– أرسين لوبين بلحمه ودمه ، ولكن ربما بغير عقله .. لقد أرهقنى هذا الوغد .. تصورى يامادلين إننى ، أنا لوبين ، أوليته كل ثقتى .. وهذا أمر مضحك .. ولكن لندرس الموقف الآن .. كم رجلاً فوق ؟

قالت مادلين :

–أحد عشر .. عندما صلصل الجرس سادت لحظة ارتباك فانتهزت الفرصة وحبستهم .

– مرحى .. نحن آمنون من هذه الناحية إلى أن يجد جديد .. أنا واثق أن جانيمار موجود فى الخارج .. ولكننى أتساءل كيف عرف .. ومن يقول جانيمار يقول قوة من الشرطة .. وهذا يذكرنى تماماً بالأبرة .

وتوقف وقد أذهلته المقارنة .. ثم قال :

كل شئ يبدأ من جديد هناك كانت رايموند وبوتريليه وهنا مادلين وسبستيان .. ماأغرب الأقدار .. وأنا ، هل أنا لوبين نفسه ؟ .. طبعاً .. أنا لوبين .. أشعر بأننى استيقظ وأصحو من حلم جميل .. أنهض يالوبين ودع الموتى يدفنون الموتى فالعمل قبل الحب .. آه ياصديقى .. أيه فرحة إذ أجد عقلى سليماً من جديد .

– افتحوا باسم القانون وإلا حطمنا الباب .

– رويدك ياجانيمار .. إننى أقوم بتصريح تاريخى وتأتى أنت فتقاطعنى أولا ، ليست هذه بالساعة المناسبة فإن البوليس يهجم فى الفجر عادة .. سوف أطالب بمجازاتك فإن لى معارف .

وكان وهو يتكلم يردد البصر فى كل ناحية من غرفة العمليات .. وراح سبستيان ومادلين يتأملان فى دهشة وصمت ذلك الرجل الغريب الذى دس يديه فى جيبيه وأخذ يطرح بقدميه ، بقايا الزجاج والملاط ويستطرد فى حديثه بلهجته الساخرة :

– مسكين سارازا .. مسكين هذا الهاملت الصريع .. أن يكون أو لا يكون .. مجنون أو غير مجنون .. أسمح لى أن أتقمص شخصيتك لحظة .. تقيم متحفك هنا .

هذه هى إبرتك لأنك قلدتنى على طريقتك .. أردت أن تفعل مثلى .. بل أن تكون أفضل منى .. ولكن كان للإبرة منفذها السرى .. إذن ..

ضربة عنيفة رجت الباب رجاً بحيث وقعت شظايا الزجاج من دلفتى الدولاب .

– كأن الضربة على الباب العيادة بالذات !

قال سبستيان :

- مسيو راوول .. مسيو راوول .

- نادنى بالزعيم فهذا أفضل .

- إنهم سيلقون القبض علينا وانطلقت بعض الرصاصات من الدور الأول .. ولا ريب أن المجرمين أطلقوها من خلال النوافذ .. وردت عليها رصاصات أخرى من الحوش .. وقال لوبين :

- سيتركوننا فى سلام بينما يتقاتلون .. ساعدنى يافتى .. ولكى نبدأ ، سنحمله فوق المنضدة لأنه يسد علينا الطريق .

وامسكا بجثه سارازا وطرحاها فوق منضدة العمليات .

- لنترك لجانيمار أن يهتم به ويعقد يديه ويتلو عليه صلاة استرحام .. والآن سيداتى وسادتى ، ستبدأ المسرحية الحقيقية :

- سبستيان ، ساعدنى فى رفع الدولاب من اليسار إلى اليمين .

أطاعه سبستيان وهو مذهول ، ولكن الدولاب لم يتحرك .

- ومن اليمين إلى اليسار .. لاشئ أيضاً .. كنت أشك فى ذلك .

وسمعوا تأوهات فوق رؤوسهم ، فإن نار المحاصرين فقدت قوتها .. وقال لوبين :

- أظن أنهم أصيبوا بضربة قاصمة .. ولكن هذا لايهمنا .. حسناً ياسبستيان ، هل تحلم أم ماذا ؟ .. ماذا ترى بجوار الدولاب .

- مفاتيح النور

- كم مفتاحاً ؟

- أربعة .

- وهل ترى هذا أمراً طبيعياً ؟

والظاهر أن سبستيان لم يفهم لأن لوبين استأنف قائلاً :

توضع مفاتيح النور فى العادة بجوار الباب وليس فى الجدار المواجه .. سوف تديرها بالتتابع ابتداء من المفتاح العلوى .. هيا ، أبدأ .

حدثت تكتكة وانطفأ المصباح .

- واحد .. استمر .

مصباح آخر اضئ فى آخر الغرفة .. وعاد لوبين يقول :

- استمر .

- لا أستطيع أيها الزعيم ، فهذا المفتاح لايدور .

- هو لايدور طبعاً ، فليست هناك مصابيح أخرى .. فكه .. هل تفهم .. فكه .

- هاأنذا أفكه .

- ماذا ترى الغطاء الخزفى ؟

- زر من النحاس .

- اضغط عليه .

وفى بطء راح الدولاب يدور كاشفاً عن فتحه ينيرها قنديل يحيط به شبكة حديدية أشبه بالسراج الليلى .. وصاح لوبين فى مرح :

- تقدموا سيداتى سادتى وتأملوا هذا العمل الفنى .. هذا الدولاب البرى إنما هو فى الواقع باب يخفى غرفة سرية .. تفضى إلى بئر يؤدى إلى مكان

ما بالخارج .. لم يكن سارازا برجل يترك نفسه سجيناً فى بيته كالفأر فى المصيدة .

انحنت مادلين فيريل وأشارت إلى أول درجة من درجات سلم فى آخر الغرفة وقالت :

- هيا بنا .

- ليس بعد .. أعد الغطاء الخزفى ياسبستيان .. ثم أننى تذكرت .. التقط مسدس سارازا وضعه فى يده .. سيعتقد جانيمار أنه انتحر ولن يخطر له أن يبحث عن باب سرى .. سأعود .

وخرج من غرفة العمليات فى هدوء واجتاز البهو ودلف إلى الصالون .. وكان اطلاق الرصاص قد كف ، وأضاء الثريات الثلاث ومضى فى بطء إلى اللوحات التى أحبها كل الحب وتوقف أمام اللوحة التى كانت رايموند دى سان فيران تؤثرها على غيرها ، وهى لوحة لجويا .. لوحة عنيفة مأساوية ورائعة وتمتم :

- سنفترق هنا يارايموند .. تعرفين أننى لن أنساك أبداً .. ولكن هذا الرجل المعذب والمحزون الذى كنته .. هذا الرجل المستضعف .. لم يكن هو نفسه الرجل الذى أحببته .. وداعاً يارايموند .. إننى أعود إلى الحياة .

وفتش جيوبه وأخرج دفتراً صغيراً وقلماً واقترب من لوحة جويا ، وكتب على مقربة منها على الورق السكرى اللون الذى يكسو الحائط بجوارها العبارة التالية بحروف كبيرة :

" يسر أرسين لوبين أن يعد لفرنسا الكنوز التى استردها بعد مشقة كبيرة " صدمة عنيفة هزت باب البهو ، وهز لوبين كتفيه وعاد يكتب فى

هدوء " ويسره أن يقدم مكافأة لصديقه جانيمار أعوان عصابة المخلب ومعهم خمسة آخرون ، أربعة منهم على قيد الحياة ، محبوسين فى قبو مصنع شانفلورى بشارع ١٤ يولية بحى بانتان "

ووقع باسمه وخرج من الصالون .. وكانت عملية التحطيم لاتزال مستمرة ببعض الكتل الخشبية العريضة كان رجال البوليس يستخدمونها المطارق أما المجرمون ، فى الدور الأول فقد لزموا الصمت .. ويبدو أنهم عقدوا العزم على الاستسلام بعد أن فقدوا زعيمهم .

وصاح سبستيان :

- أسرع أيها الزعيم .. إنهم قادمون .

ولكنك ترتجف من الخوف ياصغيرى .. ومع ذلك فسوف ترى الكثير .. هيا بنا .

وأمسك عوارض السلم بدوره واستعان بمقبض مثبت فى ظهر الدولاب وأعاد المصراع الثقيل إلى وضعه الأول .. وانطلق زنبرك فهم منه أن الغرفة أغلقت من جديد ، وكانت هناك قناديل أخرى مثبتة فى الأرض أنارت له عمق البئر ، ولم يكن باكثر من بضعة أمتار .. وكانت هنك قبة تشير لى المكان الذى يبدأ فيه السرداب .. وفى أسفل البئر كانت مادلين فيريل واقفة ورأسها إلى أعلا تنتظر .. وسألها لوبين :

- هل كل شئ على مايرام ؟ أرجو أن تنتظرا دقيقة أخرى فإننى لا أريد أن يفوتنى الفصل الأخير.. هل تأتى ياسبستيان ؟ إننى أعرض عليك أفضل لوج .

وصعدا من جديد وانحنى سبستيان بجوار لوبين .. وقال هذا الأخير :

- ألا تحب المسرح يابنى ؟ .. إننى أعبده .. هل تسمع هذه الأصوات فى الكواليس ؟ إن جانيمار مخرج ممتاز .. وهذه مسرحية لامثيل لها .

ودوت فرقعة شديدة أعقبتها صيحة من مكان بعيد :

- سلموا أنفسكم .

وقال لوبين :

- إنه جم النشاط اليوم ، فقد تحطم الباب كما ترى ورجال الشرطة يقفون فى نصف دائرة عند أسفل السلم ، والمفتش جانيمار ينظر إلى البسطة ومسدسه فى يده فى انتظار استسلام الأشقياء .. وحيث أنه يحب الهجوم دائماً فسوف يعد من واحد إلى ثلاثة ثم ... ماذا قلت لك ؟ الأشقياء يهبطون رافعى الأيدى .. ألا يروقك هذا .. أنت لا تفكر إلا فى الهرب ؟

واحتجز لوبين سبستيان من ذراعه وقال :

- ابق .. إن الخطر لذيذ وممتع يجب أن يستنشقه المرء كالهواء تماماً .. ورائحته تقترب .. هاجم .. لقد هبطوا .

ازدحمت غرفة العمليات فجأة بالناس ، وراح هؤلاء يتحركون بجوارهم تقريباً بحيث أنهم سمعوا احتكاك أحذيتهم وحفيف ثيابهم .. وقال صوت أصم :

- هل ترى أيها الرئيس ؟ .. لم تكذب مدام سارازا .

وهمس لوبين :

هو جانيمار الذى يتكلم .

وقال صوت آخر يتهدج من الاضطراب :

– إنني حزين ، نعم .. أنه هو الواقع .. لقد أطلق رصاصة على رأسه .. هذا فظيع ياجانيمار .. إذن فكل ماذكرته في ذلك الخطاب صحيح ! آه ، لقد انتقمت المسكينة لنفسها خير انتقام .

وعاد لوبين يهمس قائلاً :

– إنني أعرف دودوا .. أنه رئيس البوليس .. أسلوبه جميل مميز ولكن تشويه لسوء الخط رنة الريف .. آه .. أرجو أن تكون استمتعت جيداً ياسبستيان .

وعاد جانيمار بدوره يقول :

– أيها الرئيس .. أيها الرئيس .. إن الرصاصة أصابته في رأسه من الخلف .. هو إذن لم ينتحر .

تمتم لوبين :

– تهانئي لك ياجانيمار .. إن الخطر يقترب منايا سبستيان ، فهيا بنا ولنعجل بالهرب .

وهبطا في صمت .. وكانت مادلين تنتظرهما تحت وهي تضرب الأرض بقدميها .

وقال لوبين :

– لاداعي للجري .. سأمر قبلكما .

كان السرداب في حالة جيدة واضاءته لابأس بها .. يكاد يكون مستقيماً وكان لابد من أحناء رؤوسهم من وقت لأخر لأن السقف كان منخفضاً ، وكان الأسمنت مشققاً في بعض الأماكن ويساقط التراب من شقوقه .

وقال لوبين :

– لا ريب أننا الآن تحت الغابة ، ولن تلبث الجذور أن تتسبب فى انهيار هيا ياسبستيان .. كيف حالك ؟

– إننى على مايرام أيها الزعيم مازلت أتألم فى معصمى وقدمى ولكننى سأستطيع السير .

وفى آخر السرداب ارتفع بئر آخر أشبه بذلك الذى خلفوه وراءهم .. وكانت هناك درجات مثبتة فى جانبه أفضت بهم إلى شبه حائط أملس فى وسطه أكرة أدارها لوبين وما كاد يفعل حتى صدرت تكة وتحرك الحائط كما حدث فى الدولاب .. وسلط لوبين مصباحه الكهربى حوله ، وعرف الحصى وبقايا الطوب والخشب .. كان فى كوخ الصيد ، وكانت المدفأة هى المنفذ .

ووضع سبستيان ومادلين أقدامهما بدورهما فى الغرفة وأعاد لوبين المدفأة إلى وضعها الأول وقال :

– إن السيارة خلف الكوخ ، ولكن لنتوخ الحذر فربما أقام جانيمار كمينا بجوارها .

ولم يلتقوا بأحد .. وكانت سيارة فنسان سارازا لاتزال مكانها .. وعاد لوبين بها إلى الخلف فى مهارة .. وركبت المرأة ومعها سبستيان .. وبعد بضع دقائق كانوا فى طريقهم إلى باريس .

وقال سبستيان :

– معذرة أيها الزعيم .. أننى لم أعد احتمل .. سأنام قليلاً .. أين تمضى بنا ؟ .

– لا أدرى بعد .. ولكننى أود ، فيما بيننا أن أتخلص بأسرع مايمكن من

هذه السيارة فقد تعرضنا إلى الشبهة ، إلى جانب أنها تعيد إلى أذهاننا ذكريات بغيضة .

وكان سبستيان جالساً فى المقعد الخلفى فمدد قدميه على المقعد ولم يلبث أن راح يغط فى النوم .. وقال لوبين :

– حسناً أيتها الصديقة العزيزة .. أظن أنك أصبحت عاطلة .. كلا.. معذرة .. إن الكلمة قاسية ولا أريد إهانتك .. لا أنسى أنك انقذتنا ولكن بهذه المناسبة ، هل أستطيع أن ألقى سؤالاً ؟ .. إذا كنت متطفلاً فلا تردى كيف عرفت أننى أنا الذى كنت مع سارازا .

– أوه .. ليس هناك أى سر .. فكما رأيت كنا جميعاً مختبئين فى الدور الأول .. فقد قدمنا بعد الظهر .. والرجل موضع ثقة فنسان " واستدركت على الفور " موضع ثقة سارازا أخبرنا وقال ستأتى سمكة كبيرة .. هذه هى كلماته بالذات .

–وخطر لك أن السمكة الكبيرة هى أنا ؟

– نعم .

– شكراً .

– ومنذ تلك اللحظة عقدت العزم على التدخل .

وبلغت السيارة منحدر ليماى ، وداس لوبين على الفرامل فى رفق وهو يقول :

" من الغباء أن تقع لنا حادثة الآن .. وماذا كنت تفعلين لو أن السمكة الكبيرة كانت شخصاً آخر غيرى؟ .. تكلمى بصراحة يامادلين .. ماكنت لتحركى اصبعك الصغير .

لم تنطق وبقيا مدة طويلة دون أن تتكلم فقال لوبين :

– إنني أقرأ الفنجان كما يعلم الجميع ، ولهذا أريد أن أكشف لك عن شئ تريدين استبقاءه لنفسك .. لماذا سافرت إلى الجزائر ؟ .. لأنه أمرك بذلك .. أكتشف زوجته علاقتكما فأبعدك ريثما يضع خطة لكى يتخلص منها .

– أتوسل إليك .

– أعلمى أنها هى التى أبلغت عنه وكشفت عن المقر الذى نجونا منه .. كانت تعرف أنها فى خطر فوضعت خطاباً فى مكان ما وأمرت أن يرسل إلى إدارة البوليس إذا ماوقع لها حادث مأساوى .. وقد أبطأ البوليس فى اجراءاته طبعاً .. فمثل هذا الاتهام لم يصدقه أحد فى بادئ الأمر .. هل كنت تعرفين مدام سارازا ؟

لم تجب مادلين فيريل وفرق بينهما الصمت من جديد .. وعاد لوبين يقول :

– وبعد موتها على الفور أمرك بالعودة .. وأصدر لك تعليماته بخصوص عملية مرسيليا ، ولم تناقشيه .. أطعت لأنك كنت تطيعينه فى كل مايقول .. أليس كذلك ؟.

لم يكن الخوف هو دافعك إلى ذلك ولكنك كنت مفتونة به .

– آه .. أسكت .

– وهو الذى قال لك إننى أرسين لوبين ولم يقل لك سبستيان ذلك إلا منذ قليل .. وعندئذ وضعت فنسان سارازا فى كفة من كفتى الميزان ووضعت أرسين لوبين فى الكفة الأخرى ووقع المحتوم فقد رجحت كفتى أنا ، فكفتى

هى الراجحة دائماً .. هل ترين يامادلين ؟

وانفجر ضاحكاً .. وانطلق مسرعاً وبلغ باريس .. وماهى إلا لحظات حتي توقف فى ميدان الأنوال .. وسألته المرأة الشابة :

– ولماذا هنا ؟

– ولأنه مكان رمزى ، فمن هنا تتفرع كل الطرق .. وعلى كل منا أن يختار طريقه .سبستيان .. أصح ياسبستيان .

وهزه .. وهبط الشاب .. وكان لوبين قد فتح الباب لمادلين .. كان الوقت متأخراً والشوارع يلفها الليل .. مضاءة ومقفرة .. ونظر سبستيان ومادلين إلى لوبين كما لو أنهما يرجوان شيئاً منه .. أمراً .. أو دعوة .

وقالت مادلين :

حسناً .. الوداع .

وانتظرت لحظة أخرى ثم أدارت رأسها لكى تخفى دموعها وانطلقت فى شارع واجرام .

وقال سبستيان :

– الوداع أيها الزعيم .. من الغباء أن .

وحاول أن يجد مايعبر به عن يأسه ، وأتى بحركة مبهمة وبدأ يدور فى الميدان .. وكان يلتفت من وقت لآخر .وعندما ابتعد نحو ثلاثين متراً استقرت نية لوبين فصاح :

سبستيان .

وتوقف الشاب متردداً .

– ماهذا ياسبستيان ؟ .. انفترق هكذا دون أن نتصافح ؟

تمتم سبستيان وهو يلهث بعد ركوض :

– أوه ، أيها الزعيم .

– وإذا استبقيتك معى ؟ .. هل يسرك هذا ؟

– أيها الزعيم .. إننى .

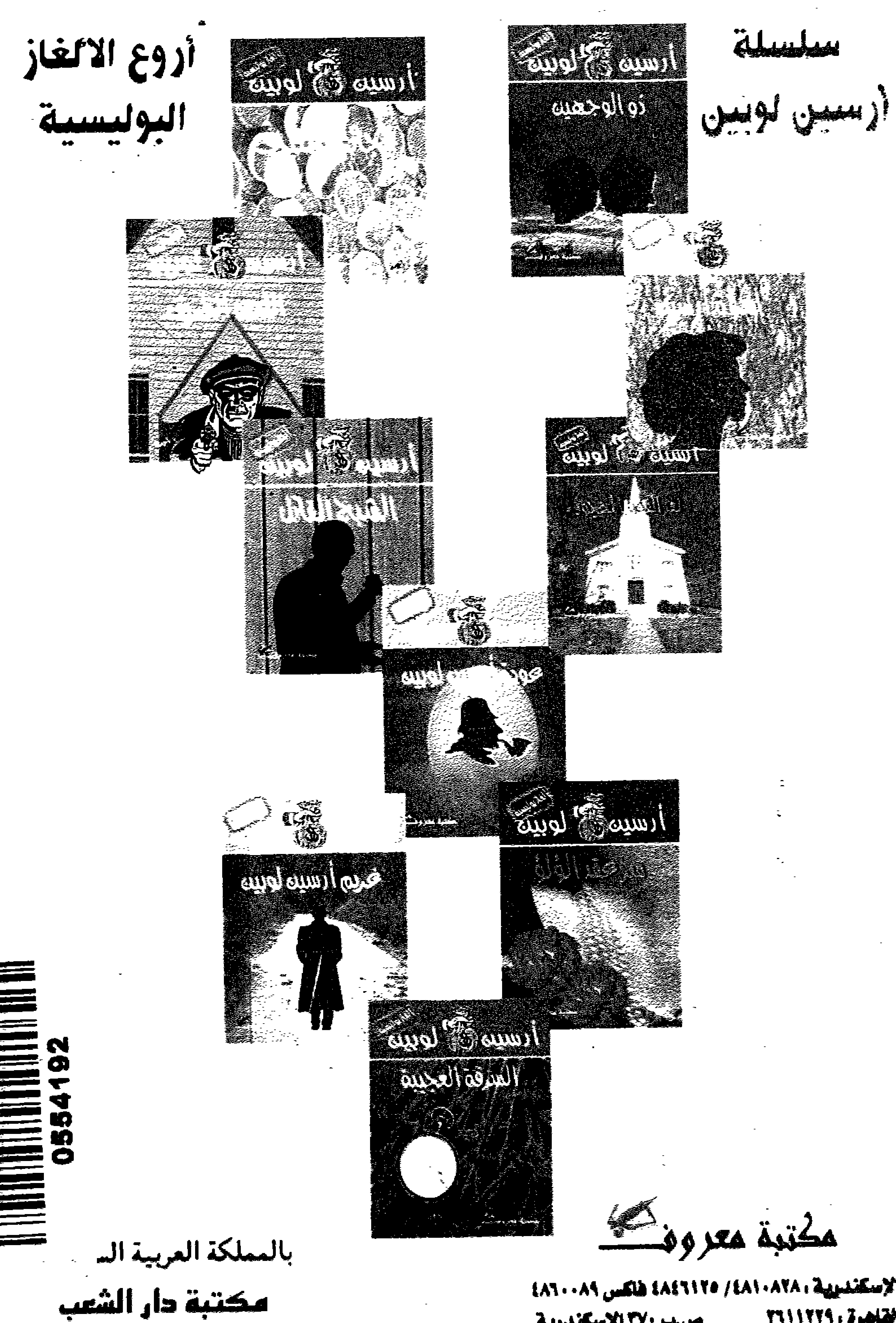
– ماعليك .. إننى أعرف أنك فصيح اللسان ولكن لاتحاول .. تعال وتأبط ذراع سبستيان وهو يقول :

– لدى أشياء سألقنك إياها أيها الفتى .. سأزودك بتجاربى وسوف تعيد إلى ذكرى أيام شبابى .

والتقيا بشرطيين ، وابتعدا نحو الشانزليزيه وهما يضحكان .

* * *

(تمـــت)



مكتبة معروف

الإسكندرية: ٤٨١٠٨٢٨/ ٤٨٤٦١٢٥ فاكس ٤٨٦٠٠٨٩
القاهرة: ٢٦١١٢٢٩ ص.ب ٣٧٠ الإسكندرية

بالمملكة العربية الس
مكتبة دار الشعب
ت : ٤١١١٢٠٧ الرياض

marouf@intouch.com